الموجة والرحيل

مختارات قصصية

محمد على الشويهدى

وزارة الثقافة
الهيئة العامة لقصور الثقافة

سلسلة
آفاق عربية

تصدرها
الهيئة العامة لقصور الثقافة

رئيس مجلس الإدارة
محمد عبد الحافظ ناصف

رئيس الإدارة المركزية
للشئون الثقافية
محمد أبو المجد

مدير عام النشر
ابتهال العسلى

الإشراف الفنى
د. خالد سرور

• الموجة والرحيل
• محمد على الشويهدى
الهيئة العامة لقصور الثقافة
القاهرة 2015م
• تصميم الغلاف: أحمد اللباد
• المراجعة اللغوية: ياسمين مجدى
• رقم الإيداع: ٩١١٣/ ٢٠١٥
• الترقيم الدولى: 978-977-92-057-0
• المراسلات:
باسم / مدير التحرير
على العنوان التالى: ١٥ أ شارع أمين
سامى - قصر العينى
القاهرة - رقم بريدى 11561
ت: 27947891 (داخلى: 180)

• الطباعة والتنفيذ:
شركة الأمل للطباعة والنشر
ت: 23904096

الآراء الواردة فى هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن توجه الهيئة
بل تعبر عن رأى وتوجه المؤلف فى المقام الأول.

• حقوق النشر والطباعة محفوظة للهيئة العامة لقصور الثقافة.
• يحظر إعادة النشر أو النسخ أو الاقتباس بأية صورة إلا بإذن
كتابى من الهيئة العامة لقصور الثقافة، أو بالإشارة إلى المصدر.

181

سلسلة شهرية تعنى بنشر أعمال الأدباء العرب

• هيئة التحرير •

رئيس التحرير
محمد بريرى

مدير التحرير
أمانى الجندى

سكرتير التحرير
أحمد بكر

الموجة والرحيل

أحزانُ اليوم الواحد

حدوات الخيل تدق الطرق المعبدة، سائقو عربات (الكارو) يطرقعون السياط في الأجواء، محركات السيارات المنطلقة في جنون تحدث ضجيجاً نصف مقبول، وتحيات الصباح يتبادلها الرجال الذاهبون إلى أعمالهم بأصوات عالية، وباعة (السفنز) والفول ينادون على بضاعتهم بأصوات تكاد تتوسّل المشترين.

الساعة كانت السابعة صباحاً، وبنغازي تتنفس الصباح في تلذذ كسول، والحياة تبدو مبهجة داعية للعمل، ووجوه الرجال يكسوها التفاؤل المفتعل الذى يراد به الاستبشار بأحداث سعيدة في يوم جديد .

حليمة في فراشها تغط في نوم عميق، وإخواتها الصغار يتحركون في مراقدهم وكأنهم يطردون آخر ما علق بجفونهم من نوم، وباب الغرفة الموصد يُدفع بعنف، والحاجّة تندفع إلى وسط الغرفة بثوبها الواسع الفضفاض الطويل، الصغار ينهضون جملة ويقعدون في مضاجعهم يتمطون، الأم تصرخ بصوتها العجوز فينفذ إلى أعماق حليمة التي تكاد تنتهي من حلمها السابع:

- (حليمة.. حليمة.. انهضي أيتها الكسولة البائرة.. انهضي حتى لا تحرقك الشمس)..

وتفتح حليمة عينيها على يوم جديد، ويفتر ثغرها عن ابتسامة تتوسّل بها أمهّا أن كفاها ما سمعت، وتموت الابتسامة على شفتيها الشابتين، وتنزع الغطاء عن جسدها وتطرق بعينيها إلى الأرض متحاشية نظرات أمهّا:

- حتى في كبري لا أرى إلاّ التعب.. حتى في كبري لا أجد من يريحني.. ليتني ما شقيت من أجلكم.. انهضي.. تحركي..

وتدخل أصوات الصغار في ضجة بريئة:

- الإفطار يا أمّي..

واستدارت الأم، ومضتْ من دون كلمة، وجّرت حليمة جسدها المنهك في إعياء إلى حيث تعلق رداءها، ولفت جسدها الفاره به وامتطت (شبشبها) إلى المطبخ. وظلال واحد وعشرين عاماً من الشقاء تحول بينها وبين أية بارقة أمل في لحظه استرخاء.

- إيه.. إيه.. القهوة.. اتسمعونني أم لا ؟

كان أخوها محمود الذي يكبرها بعام واحد، وكان يعنيها، وكانت تحمل له من الحبّ قدراً كبيراً رغم أنّه لم يحدث أن أسمعها في حياته كلمة حانية واحدة، وابتسمت لكلماته التي تطرق أذنيها كل صباح، ولكنها عادت فاكتأبت، وخرج الصوت من أعماقها كسيراً:

- حاضر.. حاضر يا محمود.. لحظة.. لحظة واحدة.

وحاولت أن تقول أى شيء آخر لتشغله بكلماتها عن ردّ تدرك مضمونه. ولكنها لم تجد ما تقوله وتوقعت أن يقول أية كلمة غاضبة تعلن عن سخطه وتبرمّه. وغير أن الصمت خيمّ من جديد. وانتبهت إلى القهوة التي تكاد تفيض. فرفعت الإناء عن اللّهب وصبت شيئاً منه في فنجان كانت أعدته. وأمسكت بالفنجان من عروته واستدارت في طريقها إلى محمود واصطدمت عيناها بعينيه. واصطدمت يدها الممسكة بالفنجان بصدره – وغاص قلبها – واندلقت القهوة على قميص محمود وسرواله. وجفّ ريقها وتملكها خوف من المجهول.

****

الصغار في الشارع. وأصواتهم المتنازعة تحمل الألفاظ البذيئة إلى داخل البيوت. وبائع الأدوات المنزلية والعجوز يحمل على ظهره كيساً كبيراً معبّأ بالأكواب والحلل والملاعق والسكاكين. وصوته العجوز ينادى على بضاعته الرخيصة في وهن. وزغرودة تنطلق من أحد البيوت معلنة عن نجاح الابنة في امتحان الإعدادية. وحدوات الخيل تدقّ الطريق المعبّده في أوقات متباعدة. ومحركات السيارات المتمهّلة تحدث ضجيجاً مقبولاً.

كانت الساعة العاشرة. وحليمة تنشر بيديها الواهنتين. الغسيل على الحبل الطويل الذى يشطر سماء الحوش إلى نصفين. وثلاث جارات يقعدن على الحصير إلى جانب الحاجّة يحتسين الشاي الأخضر "ويشرحن" ابنة ناظر المدرسة التي ترافق أباها إلى دور الخيالة. ويترحمن

على أيام الحياء والأدب التي ذهبت ولن تعود.

- خذي هذه الصحون إلى المطبخ.. وافطري إذا شئت.. وحاولي أن تنتهي من الغسيل حالاً حتى تشرعي في الإعداد للغداء.

وتحمل حليمة الصحون إلى المطبخ، وتعمل يداها في فتات الخبز وما تبقّى من حبّات الزيتون، وتبلل ريقها بقليل من الماء البارد، وتكتشف أنّها تقاوم الرغبة في عدم الأكل بالمستحيل، فتضع فضلات الزيتون والهريسة في الثلاجة، وتقذف بفتات الخبز إلى القفّة، وتستدير عائدة إلى الحمام حيث تنتظرها الملابس التي لم تغسل بعد، ويفتح باب البيت ليصفق، ويبدو الحاج بيده القفّة، وتسرع حليمة إليه وتأخذ منه القفّة لتفرغ محتوياتها في الثلاجة، ويدلف الحاج إلى الحمام، وتجسّ إحدى الجارات النبض:

- يحسن بنا أن ننهض إذ ربّما الحاج يريد أن يقضي حاجة أو أن يركن إلى الراحة.
- (أبداً..أبداً إنه يحضر مصروف الغداء في العاشرة كل يوم ثم يعود إلى دكانه).

وتنفست النسوة في ارتياح، وبدت حليمة على عتبة المطبخ تنتظر خلو الحمام لتعود إلى الغسيل، ومنت نفسها بأن تتحدّث النسوة عن أي شيء حتى تسمع جديداً في يومها، ولكنهنّ لذنَ بالصمت، وصفق باب الحمام بعنف، وخرج الحاج ثائراً ومزمجراً، فأخفت الجارات وجوههن وفتحن آذانهن في فضول:

- (المريلة) أتلفت تماماً.. أتلفها (البوطاس) .. أتلفها الإهمال. أفقدها لونها.. ألا تعرفن ياجاهلات أن (البوطاس) يفقد الملوّنات ألوانها..آه..آه.. لم أعد أطيق هذا الإهمال.. إنني أنوء بحمل لا يستحق العناء.

وتأنّت الحاجّة واستاءت لكلمات الحاج الغاضبه أمام جاراتها. أحسّت بأنها جرحت في كبريائها. وأفرغت جام غضبها على حليمة:

- لست أدري متى تتعلّمين.. إنك سبب أمراضي وأحزاني.. أنت لا تهتمين بشيء.. أنت أسوأ من أنجبت على الإطلاق.. أي زوج تعس سترمي به الأقدار إليك.. آه يا مصيبتي.. يا حظّي.

وبقدر ما آلمت حليمة كلمات أمّها الجارحة إلاّ أن ألمها كان أكبر لقولها:

(أي زوج تعس سترمي به الأقدار إليك).. ومزقتها الإهانتان .. وضاق صدرها حتى أحست بضلوعها تكاد تتحطّم.. ودق في أذنيها لفظ يحيل أيامها إلى يأس مدمّر.

- عانس.. أنت عانس.. لا أحد يرغبك.. وستعيشين أيّامك رهينة هذه الجدران التي لا تنضح بغير التعاسة.

دلفت إلى غرفتها في خطوات سريعة. وانخرطت في بكاء مرّ ولم تسعفها في أحلك لحظاتها كلمه مواساة واحدة. وكرهت نفسها أكثر مما فعلت في أي يوم مضى.

****

انتهى الحاج من صلاة العصر وانتعل حذاءه فيما عملت يداه في السجادة تلفّها. وجاء الصغار من وسط الحوش، وقد انتعلوا أحذيتهم وسرّحوا شعورهم، وتحدّثت عيونهم قبل أن تنبس شفاههم، وتشاغل الحاج عنهم ووضع السجادة فوق سطح (خزانة الملابس) العتيقة التي تحتل جزءاً كبيراً من مساحة حجرة نومه، وانطلق أوفر الصغار جرأة..

- نحن مستعّدون.. هات اعطنا ثمن التذاكر.. وسنعود قبل حلول الليل.

وقبضت يد الحاج على القطع المعدنية التي تثقل جيبه فأعطى كلاً منهم مائة درهم، ولكنّ صوتاً محتجاً صرخ في دلال:

- بم نشترى الحلوى والمكسرات؟؟.

- وقذف بعشرة دراهم لكل منهم وخرج.

- وخرجوا خلفه محدثين ضجّة مرحة.

وتمنت حليمة لو كانت ولداً لتنعم بكل هذا الدلال، وحسدت إخوتها على سعادتهم ولون حياتهم واستاءت من فكرة أنها تحسدهم، وعالجت استياءها بأن احتضنتهم في خيالها وابتسمت لشقاوتهم وخبثهم.

الساعة كانت الخامسة، والبيت كان خاليا إلاّ منها، وتحركت في خطوات متأنّية تبحث عن شيء تفعله، وانتهت من جولتها الصغيرة بين الجدران دون أن تصل إلى شيء.. واستغرقت في تأمّلاتها من جديد، وتساءلت في أسىً إلى متى ستظل في سجنها هذا تلوك وحدتها وسأمها، وشعرت بضيق يجثم على صدرها رأت أن تزيله بأية حركة، وتنبهت إلى وجود مجلات في (المربوعة) التي يعسكر بين جدرانها محمود، وقعدت على سرير أخيها

تتصفح إحدى المجلاّت التي تزدحم صفحاتها بصور البنات. وتوقفت عند صورة فتاة تكاد تكون عارية. واستغربت للمرة الأولى كيف يسمح أهل هذه الفتاه لابنتهم أن تنشر صورتها وعلى هذه الشاكلة بالذات. وبررت هذا الفسق بـ (ما بعد الكفر ذنب). وتمنت أن تعرف ما تقوله المجلة عن الفتاه العارية. وطفت على السطح عقدة الأميّة فرمت بالمجلة في غضبٍ ونهضت.

صافحت عيناها الأضواء المنبعثة من النافذة. وفرحت وأحسّت أنها تطل على الحياة التي تتدفق حيوية عبر النافذة المواربة. وتملكتها رغبة في أن تطل من النافذة على الشارع. واغتال سأمها كلّ مخاوفها. وأتت على ترددها بخطوتين خطتهما إلى النافذة في جرأة لم تتعوّدها في نفسها من قبل. وأطّلت على الشارع الكبير . وتابعت عيناها السيّارات المنطلقة في جنون. وتمنت أن تجن كسائقيها لتندفع بعيداً. ومرت عربة (كارو) يزدحم بالنساء والرجال والأطفال. وحسدتهم جميعهم على نعمة النزهة التي يتمتعون بها. والتقطت أذناها أصوات الصغار الذين يلهون تحت نافذتها في طفولة شقية. وعاودتها ذكريات طفولتها التي كانت أوفر حظاً من صباها. وابتسمت لأطياف الماضي السعيد. وخالت نفسها صغيرة تلهو في الشارع دون أن تثير انتباه أحد..

ولمحت فتى في عمر أخيها محمود يقف على الرصيف المقابل لنافذتها. وتأكّد لها أنه يراقبها فاختفت خلف الستار ولكنها فرحت كطفلة. وتلصصت عيناها تتابع حركاته التي تريد أن يخفي بها عن المارة غايته. وتخدّرت أوصالها وأحسّت بسعادة تغطى على كل حواسها. وتمنّت

أن يكون لها حب وأحلام، ودغدغتها تخيلاتها الشابة، وسرحت خلف مستقبل الأيام، والفتى الواله الذي لا يكف عن الوقوف ولا يملّ الانتظار، وأصوات الخاطبات تملأ البيت مرحاً وحياة، والزغاريد والفرح وأيام العرس، وعرف ثغرها لأول مرة بسمة الرضى، وأزاحت الستار قليلاً بيد مرتعشة فأتاحت له فرصة تأملها لحظة، وارتدت إلى الخلف فزعة وأحست بالإثم، وارتعدت فرائصها حتى تكاد تقع، قبضت أصابع متخشبة على عنقها، وجرّتها، يد قوية إلى الخلف، وانهالت لكمات محمود القوية حيثما اتفق، وتقبلت ضرباته دون أن تقر من عينيها دمعة أو يصدر عنها صوت، وشفي محمود غليله لكماً وركلاً، وللمت نفسها عن الأرض في إعياء ولاحقتها كلماته الجارحة الغاضبة:

- ستلطخين أيامنا بالعار يا فاجرة.. إنني بريء منك إلى يوم الدين، ولكنني سأموت كمداً من أفعالك، وقبل أن أموت سآتي عليك.. انتهي منك.. كيف سأقابل الرجال في الشارع؟ كيف سيرونني وسلوكك المشين من خلفي حيثما أرحل ؟

يارب ما هذه الواقعة السوداء ؟ ما هذه العانس التي أريد لنا أن نتحمّل كل أعبائها ؟ كل أخطائها.. رحمتك يارب.. رحمتك..!

الشمس تغيب، والأقدام تقل العائدين إلى بيوتهم مع المغرب، وأصوات الأمّهات تأتي من خلف الأبواب الموصدة تنادي الصغار أن يعودوا، والصغار يدقون الأرض بأقدامهم غير عابئين، ولاهون بلعبهم عن كل شيء، والحياة في الشارع الكبير تسعى إلى الراحة والنوم، والجارات يتسرين من بيت الجارة التي ولدت في اليوم السابق إلى بيوتهن، والحاجّة تدير المفتاح في

القفل وقد أدهشها الصمت الذى يخيّم على البيت والظلام الذى يلفه.

حوّلت الحاجّة عنها (جردها) وتركته متكوراً في وسط الحوش، وسحبت قدميها من (الشبشب) وأضاءت المصباح الكهربائي فغمر نوره الحوش، ومضت في خطوات فزعة متحفزة إلى غرفة الأولاد ودفعت الباب وأضاءت الغرفة واتقدت غضباً:

- سبحان الله..اللّهمّ لا حول ولا قوه الاّ بالله.. لست أدرى ما الذى يجعلني أعتمد على فتاة مثلك في شؤون البيت ؟.. كان الأجدر أن أنسى وجودك.. أن أعتمد على نفسي في كل شيء وأمرى لله.. النوم.. النوم.. النوم.. تقضين جلّ يومك نائمة.. انهضى أيتها البائرة.. انهضي يا مضحكة البنات.. انهضى يا مصيبتى..

وحليمة ملقاة على فراشها لا تتحرّك، ومغمضة العينين لا تسمع ولا ترى، مستغرقة في نومها العميق لا تأبه بما يدور حولها. وخالت الأمّ حليمة تدعى النوم، تتحايل عليها بإعياء مفتعل يجنّبها مهمّة طهى الطعام الذى كانت كلّفتها به منذ العشية، وأعماها الغضب عن كل ما ترى، واندفعت في ثورة على حليمة وصفعتها على وجهها مفرغة شحنة غضبها التي تعذب كل ذرة فيها. وفتحت الفتاة عينيها في إعياء، وبدت صورة الأم الغاضبة مهزوزة غير واضحة، وذعرت الأم، فيما عادت حليمة إلى إغفاءتها. وتحسّست اليد العجوز الوجه الناعم في حنان مفاجئ، وتلطخت الأنامل بدم قليل ينزف من جرح صغير، وفزعت الأم للبقع الصغيرة السوداء المنتشرة على وجه ابنتها، وصرخت الأم بأعلى صوتها مولولة:

- ووك.. ووك.. ووك..

وتدافعت جموع الفضوليين من الجيران والمارّة حتى ازدحم بهم المنزل، والتفت النسوة حول السرير بينما ظل الرجال وسط الحوش يتساءلون في قلق:

- ماذا حدث ؟.. ماذا يمكننا أن نفعل ؟

ومرق محمود من بين الرجال إلى حيث تتجمع النسوة فأغلق باب الحجرة، ثم التفت إلى الرجال الواقفين في وسط الحوش يدفعهم إلى الشارع في غضب:

لا شيء.. لا شيء...أختي مرهقة وكفى.. سأتدبّر الأمر بنفسي..!

وخرج الرجال إلى الشارع، وأوصد محمود دونهم الباب، وعاد محملاً بشحنات من الغضب، فركل باب الحجرة بقدمه ودلف إلى حليمة التي وعت من لحظة بعد أن استنشقت بصلاً مقشوراً وحالت النسوة وولولات أمّه بينه وبينها، وخرج مغلوباً لا يكاد يتبيّن أين يضع قدميه.

****

الساعة العاشرة مساءا، والصغار أمام الشاشة الصغير يتابعون في مرح أحد المسلسلات والحاجّة تجلس على نطع مستندة إلى الجدار والشاي الأخضر يغلى على النار والحاج على كرسيه العتيق ينفث في قلق سحابات الدخان:

إن إنجاب البنات كارثة تصيب الرجال.. لو كانت ولداً لما حدث ما حدث.. ليته قتلها وأراحني منها ما دامت ألسنة الناس ستلوك فضيحتنا..

إذن فأنت توافقه على فعلته.. كنت أظنك تترقّب رجوعه لتثأر لابنتك المسكينة.. ولكنكم من طينة واحدة.. قساة.. قساة..

إسكتى.. أنت التي أفسدتها.. البنت أمّ دون شك..

وتركن الحاجّة إلى الصمت تجنباً لثورة ربما ذهبت حليمة ضحيتها، وتجر حليمة قدميها إلى غرفتها الموحشة بعد أن بئست من الجلوس إلى الشاشة الصغيرة بجوار إخواتها، وتضيق بها دنياها، وتنبض جراحها ومواقع الركلات واللكمات بألم كبير، وتلقى بجسدها المنهك على فراشها، وتبلل مخدتها بالدموع، ثم لا تلبث حتى تستغرق في نوم عميق، وتمتطيه صوب يوم آخر.

مريومة تغمز الحصان

عيناها مشبعتان بالحبّ، وعيناها مشبعتان بالدموع، وعيناها مشبعتان بالتفاؤل، والمذياع يتحدّث عن نصف المجتمع المصاب بالشلل، وأصغر أطفال مريومة يشدها من قفطانها، والّذى يكبره مباشرة يرمى بكوب زجاجى على الأرض فيكسره، وأصحاب دكاكين البقالة يصنعون كثيراً من القصص عن نسوة الحي، والسماء لا تمطر ذهباً، وأصغر أطفال مريومة يبحث بيديه النهمتين عن قطعه خبز في القفّة.

مريومة تفرد قامتها، وتمسح بسبابتها ما تبقّى من رشح الدمع في عينيها، فرفيق العمر مات، أبو الأولاد مات، رجل البيت مات، ومريومة تفرد قامتها وتطل على الدنيا بعينين من غير كحل، وبعينين مشبعتين بالتفاؤل.

- يا خالتي الحاجّة.. عيناك على الأولاد..

ودقت أرض الشارع بقدمين قويين وعينين من غير كحل، ودق الشارع إصرارها بصهيل الخيول ونحنحة الرجال وقهقهات المراهقين وفضول العيون، ولكن مريومه بنت ناس، وأبو الأولاد مات فكل الرجال ماتوا، وأصغر الأطفال يبحث بيدين نهمتين عن قطعة خبز في القفّة.

وابتسم الرجل المنفوش ففضح أنيابه الصفراء، وحكّ رأسه، وبدا في هيئة الرجل الخدوم الطيّب، وفكّر ملياً ثم ولد فأراً:

- يا مريومة.. أنت بنت ناس.. لا يجب أن تعملي في وظيفة ومنظفة.. افتحي عينيك على الحياة وكوني شيئاً آخر أفضل..

ومريومة بنت ناس، وبنات الناس لا ترفع عينيها إلى أعلى، وتمتمت الأرملة كأنما تخاطب ذاتها مجيبة في استحياء:

- يالاسيدى المسؤول.. لا أستطيع أن أكون أفضل من منظفة، أبى لم يدخلنى مدرسة وأمّى لم تعلمني غير الكنس..

قالت الأنياب الصفراء متودّدة:

- يا مريومة.. أنت تملكين الكثير من المؤهلات..

سألته:

- هل ستجد لي عملاً ؟

- نعم.

- متى ؟. عدني..

- غداً.

ومضت مريومة تدق أرض الشارع بقدمين قويين وعينين من غير كحل، ودق الشارع إصرارها بصهيل الخيول ونحنحة الرجال وقهقهات المراهقين، ولكن مريومة بنت ناس، والصغار في البيت ينتظرون، والطريق إلى الصغار لا بدّ أن يكون مفروشاً بالإصرار.

- باركك الله يا خالتي الحاجّة.

- يا مريومة يا بنتي تزوجّي. فللأطفال رب يحميهم وأعمام يهتمّون بهم.

ذرفت مريومة ابتسامة:

- يا خالتي الحاجّة.. أبو الأولاد مات.. فكل الرجال ماتوا.. أجل كل الرجال.. ودفعت كبير صغارها إلى البقالة المجاورة وفي يدى الصغير دراهم قليلة. وفي عينيه شوق إلى قطعه خبز وقرص جبن. وصاحب البقالة المجاورة قاعد على صندوق خشبي ينفث دخان لفافته ويتحدث إلى القعود في لغة العالم:

- أبو الاولاد مات.. وأم الاولاد فجرت.. رأيتها بهاتين العينين اللتين سيأكلهما الدود والتراب. رأيتها في الشارع تمشى بين الخيول والعيون والمراهقين والرجال. رأيتها بإحدى عينيها المكحولتين تغمز حصاناً.. والمرأة امرأة يا رجال.. أنتم تعرفون أن المرأة تحتاج رجلاً ونقوداً. فإن لم تجد ما تحتاجه في البيت مرقت إلى الشارع تبحث عنه. ثم إنني رأيتها بهاتين العينين اللتين سيأكلهما الدود والتراب تغمز بإحدى عينيها المكحولتين حصاناً.

وامتدّت يد أكبر الصغار بدراهمه القليلة. وحدّق صاحب البقالة المجاورة في الدراهم وهز رأسه مستنكراً. وثم انفجر ضاحكاً حتى دمعت عيناه اللتان سيأكلهما الدود والتراب. وهمس لأكبر الصغار بصوت عال:

- فلتعطنا أمّك ما أعطاها الله. ولتضف إلى دراهمك القليلة دراهم أخرى لأبيعك حاجتك من الخبز والجبن. فإن لم تكن لديكم نقود فلتغمز أمّك حصاناً آخر.

ومضى أكبر الصغار إلى المريومة التي كانت تنتظر فجر اليوم التالى في ظهر اليوم الأول. وجذب الصبر والفجر، ودقت مريومه أرض الشارع بقدمين قويين وعينين من غير كحل، ودق الشارع إصرارها بصهيل الخيول ونحنحة الرجال وقهقهات المراهقين وفضول العيون، ومريومة بنت ناس، والله في الوجود، ونصف المجتمع لا يجب أن يبقى مشلولاً. وأبو الأولاد مات أجل.. أبو الأولاد مات..

- السماء لا تمطر ذهباً.

- نعم.

- ولابد أن يفكّر الإنسان بعقل.

- نعم.

- وأنت تفكرين بعقل.

- نعم.

- تعالى إلى البيت عشية اليوم... سأبحث معك طبيعة العمل الذى يمكن أن تؤديه.

- في البيت ؟

- ولم لا ؟

ودقت أرض الشارع بقدمين قويين وعينين من غير كحل، ودق الشارع إصرارها بصهيل الخيول ونحنحة الرجال وقهقهات المراهقين وفضول العيون ومضت في طريقها المفروش بالإصرار، فأصغر الأطفال لا شك يبحث بيدين نهمتين عن قطعة خبز في القفّة الفارغة..

- ثلاثة أرغفة وعلبة جبن، ونفث صاحب دكان البقالة المجاورة دخان لفافته وحدّق في عينيها غير المكحولتين، وصار حصاناً في التو، فتقيأ ابتسامة، ناولها الحصان الأرغفة والجبن، ورفض أن يفقدها دراهمها القليلة، فالله يحب المحسنين.

- فليباركك الرب يا خالتي الحاجّة..

- فاجرة أنت. فاغربي عن وجهي..

ودقت اللعنة إصرارها طيله عام، وأبو الأولاد مات، ومريومة لا تجيد الرؤية بعينين من غير كحل، وأكبر صغارها يحدثها في طفولة:

- سيدي الحاج محمود اشترى دراجة لابنه صلاح، جئت كي ألعب مع صلاح فطردني وشتمني، قال إنني شحاذ، وكان قميصي الممزق يشيننى بين الصغار، وكان أخي سليم يمرح والذباب على العتبة بلا سروال، فركله محمود بحذائه الجديد بينما كان يحمل صينية الأرز المعتادة إليك ولم أستطع أن أنتقم لأخي، وكل الصغار يا أمّاه يحملون نقوداً وينعتونني بالشحاذ، فما معنى أن نعيش على الصدقات ؟

- اعطيني نقوداً وقميصاً وسروالاً جديدين، واشترى لي دراجة والإ فاحبسيني في البيت بعيداً عن كل الصغار.

ودقت اللعنة إصرارها عاماً ثانياً، وأبو الولاد مات، ومريومة لا تجيد الرؤية بعينين من غير كحل، والمذياع يتحدّث عن نصف المجتمع المصاب بالشلل، وأصغر الأطفال يشد مريومة من قفطانها، والذي يكبره مباشرة يرمي بكوب زجاجة على الأرض فيكسره.

ودق باب البيت بعنف، ونفث صاحب دكان البقالة المجاورة دخان لفافته في وجه مريومة، وتقيأ ابتسامته، وذرفت ابتسامته، وصهل الحصان:

- عامان يا مريومة دمرني خلالها الانتظار.. ادفعي ديونك وإلاّ فإني سأرفع الأمر إلى القضاء.. ألا تفهمينني ؟ ادفعي.

- ولكنني لا أملك نقوداً.

- لتكن مقايضة... بضاعة ببضاعة..!

- وفهمت مريومة، ومات أبو الأولاد في العام الثاني ميتته الأخيرة، وحدقت مريومه في الفراغ بعينين مكحولتين، وغمزت الحصان، أجل غمزت الحصان.

اعترافات جريئة

إنني لا أذكر من طفولتي شيئاً يمكن أن أنطلق منه في روايه قصتّى، ولكنني أذكر أنني كنت فتاة مدلّلة إذ كنت بكر أبويّ، كنت أول من قذف به الحظ من إخوتي إلى هذه الحياة، وكان مجيئى إلى الدنيا بعد طول انتظار وصبر وعلاج، و لذا فلقد استقبلت استقبالاً رائعاً من قبل أبويّ، بالغا في تدليلى وتوفير طلباتى حتى علّماني كيف لا أحترم أحداً منهما، وكيف لا أحسب حساب أحد ولا أهتم بغضب أحد.

عندما بلغت السادسة لحقنى الآخرون، أعنى بقية السرب، إخوتي، جاءوا إلى الدنيا الواحد تلو الآخر، وبدأ أبواي اللذان إشتاقا طيلة سنوات معاناتهما للأطفال ينصرفان عنى إلى إخواتي، وبدأت أحسّ بالخسارة التي لحقتني، بدأت أحسّ أنني أخسر حب أبوي بالتقسيط، أخسره مع كل صرخة ميلاد، مع كل دقيقة يفد فيها على الدنيا قادم صغير، وبدأ لفراغ يلفنى، بدأت أحسّ كأنني أعيش في هذه الدنيا وحيدة، وسيطر الإحساس بالوحدة، نعم، كنت أحس كأنّني منبوذة، محرومة من دفق الحنان والحبّ الذي كان يغمرني، أحسست بكل هذا رغم إنني لم

أكن أتعدى السادسة من عمري، وبدأت أبادل أبوي نكراناً بنكران، وعدم اكتراث بعدم اكتراث، ووجدتني أكره أبوي وأكره إخواتي الصغار، وأميل إلى الانطواء وحيدة في لعبي، في معيشتي داخل البيت وخارجه.

ومرت السنوات ونفسي تأبى أن تميل إلى غير الوحدة والرغبة الشديدة في معاكسة أي أمر يصدر إليّ من أبي، من أمي، من إخواتي الذكور الذين يصغرونني، والذين أراد لهم غرورهم الغبي أن يتحكّموا فيّ فقط لأنهم ذكور ولأنني أنثى. كنت أعاندهم، أكايدهم، أتشاجر معهم حتى أنني اضطررت في إحدى المرات إلى ضرب أخي الذي يصغرني مباشرة، ضربته ضرباً مبرحاً حتى كدت أقضي عليه كعقاب له على رغبته الغبية في استعبادي، في إذلالي، رغم أني أكبره، رغم أني الأولى في حياة الأسرة.

من باب العناد – ليس إلا– واصلت دراستي، التحقت بالمدرسة الإعدادية في بنغازي، ورغم مواصلة دراستي التي جاءت نتاجا لعنادي إلا أنني وجدت في المدرسة ما ينفس عن كبتي، ما يبدد وحدتي ويسليني، ولذا وجدتني أتشبّث بالدراسة مدفوعة بقوة أكبر من عنادي، وتحصلت على الشهادة الإعدادية لأخرس الجميع، لأثبت لهم أنني أصنع شيئا مجدياً بذهابي إلى المدرسة فأسكت آخر حجج المعارضة التي كانت تواجهني من أسرتي.

عندما حصلت على الإعدادية كان عمري خمسة عشر عاماً ولم أكن حتى ذلك الوقت أعرف شيئاً، كنت مغلقة تماماً عن الأفكار الجنسية

رغم همسات وغمزات أمي المتواصلة ونصائحها لي بأن لا أقفز حتى لا أفقد بكارتي، ورغم حديث زميلاتي في الفصل عن الشبان والحب والحياة، ولم أكن في حقيقة الأمر أرغب في معرفة شئ عن عالم الجنس الغريب، ولكن فراغي دفعني إلى القراءة خلف الجدران في البيت.

وجدت في الكتاب صديقاً عزيزا، رفيقاً لا يملّني ولا أملّه، أقضي في رحابه كل وقتي، لذا وجدتني أقرأ كثيراً، بدأت بقصص الاطفال فقراتها جميعها رغم عدم تناسبها مع سّني، نعم لم تكن تتناسب مع سني لأنني كنت أحس أنني كبيرة وأن الأفكار التي تعرضها قصص الأطفال ساذجة وغبية، بعدها، وفي السنة الأولى الثانوية، بدأت أتجه اتجاهاً جديدا في قراءاتي، بدأت أقرأ قصص الكبار، قرأت لنجيب محفوظ ولتوفيق الحكيم وليوسف السباعي ولمحمود تيمور ثم لإحسان عبد القدوس.

عندما بدأت أقرأ لإحسان عبد القدوس كان عمري سبعة عشر عاماً، وكنت في السنة الثانية الثانوية، وكنت أحس بأنني كبرت بالفعل بدليل نظرات الرجال التي تخترقني فأتعثر وتحمر وجنتاي وأحسّ بالدماء حارة في عروقي، وكانت جلّ قصص إحسان لا تدور إلا عن الحب والجنس، وكان أبطال إحسان يخرجون من غرفة مقفلة يتبادلون تحت سقفها الحب في بساطة، وكنت أحسّ أنني بطلة كل قصة أقرأها، كنت أحسّ وكأنني أعيش في القاهرة حيث أبطال إحسان الذين يبدع في تصويرهم.

وعرفت الجنس من خلال كتابات إحسان عن الحب، وأدركت الجنس من

خلال التطورات التي طرأت على كل جزء في جسدي، فصرت لا أقرأ لغير إحسان ولا غير الجنس، ودخلت السنة الثالثة الثانوية، وبدأت أحب، نعم أحب، أحب شخصاً وهمياً لا وجود له في الواقع، شاباً غير واضح الملامح، ولكنه رقيق مؤدب، يحدثني عن الحب في لغة الشعراء، يشبع أحاسيسي في غربتي بالحنان الذي حرمته، أجد في اللجوء إليه خلال ليلي الطويل.

كل سعادتي، اتنفس أنفاسه وألقى في ابتسامته الودودة حياتي، وسخرت من نفسي، من خيالي الذي يعالج وحدتي باختلاف حبيب لا وجود له، ولكني لم أستطع أن أتخلص من حبيبي المجهول الذي ظلّ – رغم كل عنادي – يلاحقني حيثما حللت ومهما حاولت أن أنصرف بفكري عنه.

وحصلت على الشهادة الثانوية، وكان كل أملي أن أدخل الجامعة، ولكن مجلس العائلة اجتمع ذات ليلة وقرّر أنني كبرت، وأن خروجي إلى الشارع حتى لو كان بقصد الدرس والتحصيل يشكل خطراً يجدر بالعائلة أن تتجنبه، فكيف يمكن أن أقعد إلى جانب الرجال في مدرجات دون أن يحدث ما لا تحمد عقباه ؟!

وحاولت أن أقنع المجلس بأنهم يحكمون عليّ بالإعدام، وأنه يجب أن أنهي دراستي التي قطعت فيها شوطاً كبيراً، وكنت في حقيقة الأمر متحمسة لرغبتي في إكمال دراستي كي أوفق في الحصول على حبيبي الذي صنعه خيالي في دنيا الواقع، وكي أوفق في الحصول على شهادة

تكسبني صفة خاصة دون بنات شارعنا. ولكنني رفضت ككل، لم أسمع على الإطلاق، قوبلت كلماتي بأمر غير قابل للنقاش، أمر يقضي بحرماني من إكمال دراستي حتى لو استدعي الأمر استعمال القوّة. ولجأت إلى غرفتي أبكي، أنزف دموعي على مخدتي. وكلمات أخي الذي يصغرني تأتيني ثائرة في غباء طفولي يكاد يدفع بي إلى الجنون:

- لا يمكن.. لا يمكن أبداً أن أكون مضحكة بين الناس...!!

وأبي.. وأمي.. عمي... خالي... كلهم يطيبون خاطره ويعدونه بأنني لن أرى النور أكثر مما رأيته وكرهت الطفل الذي يريد أن يصنع من نفسه رجلاً على حسابي، كرهته أكثر مما كرهت الجميع. وعربد في داخلي عنادي، عنادي القديم، الذي لازمني طيلة سنوات عمري، وقررت أن أفرط فيما حاولوا أن يحفظوه بالقوة.

بدأت أقف خلف الباب وأراقب ابن الجيران العبيط الذي يغازلني منذ شهور، بدأت أمنحه الابتسامات وأغذي مراهقته بالإشارات. وبدأ الشاب يتسمّر بالساعات الطويلةعلى عتبةالباب، متودداً، متقرباً ملوحاً بين الحين والآخر بقصاصة في يده. وكنت أكرهه، ولم يكن حبيبي الذي حلمت به في خيالي، كان مجرد إنسان تافه يبحث عن امرأة، عن شيء يشغل به فراغه، عن قصة يرويها لأصدقائه. ولكنني كنت أريد أن أستعمله في حربي ضد أهلي، وكانت رغبتي عمياء في أن افعل، كانت رغبتي مجنونة لا يحكمها عقل ولا منطق ولا يسرها سوى عنادي، عنادي على تحطيم أهلي.

وخططت للجريمة، وبدات أنفذها بمنتهى الثقة. أشرت له فجاءني مهرولاً، وسلمته بيد مرتعشة قصاصة صغيرة، وجاءت الساعة الثانية صباحاً، وتحركت من فوق فراشي الدافئ تسللت في خطوات بطيئة يقظة إلى الباب أفتحه لأعبر الأمتار القليلة إلى (مربوعته) ؛ وعلى سريره المتواضع أعطيته نفسي، أعطيته جسدي، دون أن أحس به. وافترسني في بهيمية وانتهى مني في دقائق، ونهضت دون أن أتبادل معه كلمة واحدة، نهضت منهكة القوى، خائرة، متبلدة، دون أي إحساس بأي انتصار، وجررت خطاي إلى الشارع فالبيت أحمل عاري على أكتافي.

ليلتها لم أنم.. كان الألم يمزقني، ألم في جسدي، ألم في روحي، ألم من نوع جديد لم آلفه من قبل، وكدت أوقظ أمي لأبلغها بما حدث، ولكني استغنيت عن إبلاغها بالبكاء. بكاء مرّ لم ينته إلا مع خيوط الفجر...

في الصباح اعتراني شعور عارم بالذنب، شعور بالجريمة، إحساس بالمهانة، إحساس بأنني لست سوى إحدى بطلات إحسان الساقطات. وكدت أجن. قررت أن انتحر ولكنني كنت أجبن من أن أفعل، قررت أن أهرب ولكنني تصورت نفسي وضيعة على الأرصفة مطاردة من الأهل والشرطة والذئاب، واحترت، وأفقدتني حيرتي شخصيتي القوية، شخصيتي المميزة، شخصيتي العنيدة، وتبدل إحساسي تجاه أهلي، لم أعد أكرهم ، لم أعدد أمقتهم، بدأت أتملقهم وأحاول أن أكسبهم، وكسبتهم بالفعل. كسبت أمي، وأبلغتها بأنني فقد بكارتي، أفهمتها أنني قفزت من فوق الكرسي ففقدت بكارتي، وجن جنون أمي ثم جنون

أبي، ولكنهم اتصلوا بإمام المحلة وأبلغوه بما حدث لي، وحررت شهادة طبية بالواقعة اعتمدها الإمام الذي يشهد بأننا من أشرف أسر بنغازي، ووضعت الشهادة في المحكمة، وعدت أكره أهلي أكثر ما فعلت طيلة حياتي، وبدأت أتشفى بانكسارهم والذلّ الذي يلون تصرفاتهم ولكنني كنت أتعذب. كان سبب عذابي إحساسي بتفاهة حياتي التي أعيشها.

وأبلغت بانني سأزف إلى ابن عمي الذي يكبرني بعامين، ولم أتأثر بالبلاغ الرسمي رغم كل المظاهر التي أحاطتني في أعقابه. كنت أحسّ وكأنني مكلفة بغسل صحون أو كي ملابس أو أي شيء من هذا القبيل...و... نقلت إلى حجرة صغيرة في بيت عمي، وقبلني ابن عمي كما أنا، قبلني بعاري البريئة منه بموجب وثيقة رسمية صنعتها الثقة، وبدأت أعيش حياة جديدة مع إنسان لا يعرف أكثر من رصف علب الطماطم على الأرفف، بدون شخصية تميزني، بدون إحساس حقيقي بالحياة في كنف حبيبي الذي رسمته في خيالي، ولم يكن ابن عمي يحس بشيء مما أحس به، كان بعيداً عني في عالمه بين أمه وأبيه وإخوته يعيش حياته متغندرا بما حدث في السوق من مواقف غبية لا تضحكني، وعدت إلى إحسان من جديد، عدت إلى وحدتي ألوك عذاباتي وأحزاني، أعطى ابن عمي ما يريده في ليله دون أن آخذ منه، لأغلق على نفسي بابي، أمضغ أحزاني وألوك تعاستي وأخاف من نفسي على نفسي، أخاف أن أتعثر فأقع، أقع ذات الواقعة التي وقعتها قبل زواجي. وأحتار، واستغفر الله وأستغفر نفسي واستغفر أهلي وأذوب في الأحزان.

شحنات الكراهية

أنا طفل، عمرى عشر سنوات، وأكره أمى كثيراً، وأتعذب في كرهها لأننى لا أريد أن أكرهها، أريد أن أحبها كما يحب الصغار أمهاتهم، لكن نفسي لا تفيض بغير كراهيتها، أكرهها كما لم يكره طفل أمه من قبل، وأنتم لا تهمكم أحزاني، فأنتم لا تنفعلون بأحزان أحد حتى لو كان طفلاً مثلي، لأنكم لستم سوى تركة حربين بلّدت الأحداث الهائلة أحاسيسها وأفقدتها مشاعرها وجعلتها لا تختلف في شيء عن الجماد، ولكن معذرة أيّها الكبار لأننى سأحدث لنفسي تمام كما يحدث معى كل ليلة، وسأبكى وأبكي وأشحن ذاتى بكراهية أمي وكل الكبار.

إننى طفل حقود، طفل يغلي داخله بكراهية هائلة مدمرة، رغم أننى لم أكن كذلك منذ عام، فمنذ عام كنت طفلاً آخر، كنت طفلاً مدللاً، كنت وحيد أبي وأميرهما الصغير الذي لا يُرفض له طلب ولا تُرد له كلمة، كنت طفلاً سعيداً كغيري من أطفال العالم السعداء بل وأوفرهم سعادة، وكنت أعيش وأبي وأمي في بيت صغير ولا ينبض قلبي بغير الحب، حبّ أمي وأبي وحب بيتنا الصغير الواقع في آخر الزقاق، وحبّ

كل قطعة أثاث في بيتنا، وحب أطفال شارعنا وعجائزه وشيخوخه، وكل هؤلاء كانوا يحبونني حباً كبيراً، حتى أوانى المطبخ كانت تحبني ولقد وقفت على هذا الحب بنفسي.. لعلكم تتساءلون كيف ؟!!

سأحدثكم..

أذكر أن أمي كانت تضع قدراً نحاسياً ضخماً فوق خزانة المطبخ، وكنت أقف إلى جانب الخزانة أحادث أمي التي كانت تقف في ركن المطبخ تعد الغداء، وظللت واقفاً لساعة ثم تحركت، تخطت قدماي عتبة المطبخ ووقع القدر على الأرض، أى حيث كنت أقف، وابتسمت للقدر الذي عرفته لتسع سنوات في بيتنا الحبيب، وشكرته من قلبي على تفاديه الوقع على رأسى الصغير.

كنت لا أحتمل الابتعاد عن أبي ولو للحظة، فكنت أقضي العشية معه في ملاعب الكورة أو دور الخيالة أو (سوق الظلام) او أحد المنتزهات أو كبرى المحلات التجارية، حيث أنتقي ما أريد من ملابس أو لعب دون اعتراض، ولا أنام إلا ورأسي على ركبتيه، وكان هو الآخر لا يحتمل الابتعاد عنى، وكان كلما عاد من العمل ظهراً يسأل عنى فأجرى إليه وأعانق ركبتيه فيرفعنى إلى صدره ويشبعنى تقبيلاً وهدهدة ودغدغة ، وكنت أعرف أن أبى يدللني، وكنت أجد في تدليله سعادتى التي لا تضارعها سعادة، وكان يصرّ على أنني رجل وعلى أنه وعلمه فإنني يجب أن أقعد مع الرجال وأحدث اليهم بل وأناقشهم في أقوالهم وبآرائهم، وكانوا يجدونني مسلياً لأننى أحدث مثلهم في كل شئ وبصورة لا توحى إلا

بأنني رجل مكتمل النمو رغم سنوات عمري القليلة... هكذا كنت أعيش حياتي، وهكذا كنت أحبها.

وحدث ذات يوم أن عدت من المدرسة ووضعت حقيبتي في (المربوعة) وخلعت حذائي وجوربي، وأحصيت ما في جيبي من نقود صغيرة ثم خرجت فاغتسلت وعدت إلى (المربوعة) التي كنت أصر على الجلوس فيها كما يفعل شباب شارعنا الذين يكبرونني، وأذكر أنني قررت يومها أن أدعو أبي إلى دار الخيالة على حسابي لأنني كنت أملك قيمة تذكرتين، وفرحت كثيراً، ومنيت نفسي باللحظة التي يعود فيها أبي وأدعوه إلى مرافقتي وعلى حسابي، وانتظرت يومها طويلاً ولكن أبي لم يعد.

وتجاوزت الساعة الثالثة بعد الظهر وقرصني الجوع ويئست وجاءت أمّي:

- أبوك تأخر على غير عادته.... اخرج وابحث عنه...!!

وكانت جزعة... نظراتها... كلماتها... ملامح وجهها... كل شيء فيها كان يرجّف، وخفت لأوّل مرة في حياتي، أحسست بوقوع كارثة ما، وضعت قدمي في حذائي وفتحت الباب وإصطدمت عيناي بعيني سيدي سليمان، الذي كان سيطرق الباب، وغاص قلبي في قاع داخلي وسألني الرجل:

- أين أمّك ؟

وذهلت لسؤالهِ السمج، واحترت، كيف يجرؤ على السؤال عن أمّي ؟ وعقدت حاجبي وقلت من خلال أنفاسي التي تلاحقت:

مالك وأمي ؟... إنني رجل البيت فماذا تريد ؟

ومسح براحته على رأسي ودفع إلى بابتسامة فزعة، وحوّلني عن الباب حتى كدت أفقد اتزاني، ومرق على الرغم منّي إلى السقيفة حيث كانت أمّي، ودخلت من خلفه وكدت أطرده، ولكن أمّي لم تخف وجهها عنه كما كانت تفعل مع بقية الرجال بل دعته إلى (المربوعة) غير أن الرجل لم يستجب وقال في كلمات مقتضبة:

- لقد وقع حادث لسعيد.. صدمته سيارة في طريق عودته من العمل.

وأصبت بخرس، لم أستطع أن أنطق بكلمه واحدة، تحركت عيناي فالتقت بعيني أمّي، وجدتها متجمّدة خرساء هي الأخرى، أفقدها الخبر قدرتها على فعل أي شيء، واحتار الرجل أمام سلبيتنا فأضاف:

- جئت من المستشفى وسعيد في كامل وعيه... مجرد إصابة بسيطة.

- وولولت أمّي واستدارت عائدة إلى وسط الحوش وظل الرجل واقفاً في السقيفة يحّدق في غباء وصرخت في وجهه غاضباً:

- أبي لا يمكن أن تصدمه سيارة... إنني أعرف مدى حرصه... إنك تكذب... أنت كاذب.

والتفت الرجل إليّ وصوب عينيه المليئتين بالغضب والحنان وصرخ:

- أسكت... أسكت يا ولد !

ودخل خلف أمّي، التي علا نحيبها وبكاؤها لسوء حظّها، ومزقتني كلماته الجارحة رغم ادعائه الحنان، ودخلت من خلفه لأجرّه إلى الشارع

وقد تملكتني كل غيرة أبي على أمّي، وقرّرت أن أطعنه بالسكين الحاد الذي تحتفظ به أمي في المطبخ إن رفض الانصياع لأمري، واقتربت منه أشده من سرواله، وطعنتني كلماته في سويدائي:

- البركه فيكم... لقد توفي سعيد... عوضكم الله فيه خيراً...

- ولم أسمع بعدها سوى صرخة أمي الأولى، ولا أذكر سوى أنني وقعت على الأرض وغبت عن وعيي تماماً.

نهضت بعد ساعتين، وجدتني في غرفة مظلمة على سرير في بيت أحد جيراننا الطيبين، قفزت مفزوعاً وهرولت إلى بيتنا، وتخللت الهرج والمرج والوقوف والنساء المولولات والدقات على الصناديق، ودفعت باب (المربوعة) فوجدته مقفلاً، دفعته بقوه فانفتح، ودلفت إلى وسط (المربوعة) فوجدت أبي مسجيّ، ورفعت الغطاء الأبيض عن وجهه، وانهلت أقبل شفتيه وعينيه المقفلتين ووجهه الأصفر وأغرق كفنه في دموعي وأصرخ مستغيثاً:

- أبي لمن تركتني ؟؟.. لمن تركتني يا أبي ؟؟... لِمَ تموت ؟ وما الحكمه في موتك ؟؟ إنني أحبك...أحبك... فلِمنْ تركتني ؟... أبي... أبي...!!!

وأبي لا يستجيب وقد تخلّى عني تماماً، مات كل شيء فيه حتى حبّه الكبير لي، أبي لم يعد أبي أبداً... مات وانتهى!!

وضعت أصابعي على جفونه محاولاً أن أفتح عينيه، أن التقى به، فما كان يجب أن يرحل دون كلمة وداع واحدة، دون أن يضّمني إلى صدره

ويمطرني تقبيلاً وعناقاً، وحباً وسمعت وقع أقدام غاضبة، وقبضت يد حجرية على عنقي، وجرّني سيدى سليمان إلى الشارع فيما اهتم بقية الرجال بإعادة أبى إلى سابق وضعه، وانتزعت نفسى من يدى الرجل الكريه، وأصلحت من هيئتى، وجلست على أحد الكراسى المصفوفة إلى الجدار، وجاءني الرجال يعزونني، واغرورقت عيناي بالدموع ولكنّ أبي كان يهمس لي في حب:

- كن رجلاً أمام الرجال.. كن رجلاً وإلاّ غضبت منك...

وانتهت ليالى العزاء الثلاث، ومضى أسبوع وخلا البيت من جميع الذين شاركونا أحزاننا، خلا من الجيران والأقارب والأصدقاء . وبقيت في البيت أنا وأمّي، وعذبتنا الليالي الموحشة في غياب أبي وافتقدنا ضحكاته وكلماته وحكاياته وحنوه وحرصه على إسعادنا. ولكنني كنت ألتقي به في كل ليلة، في نومي وفي يقظتي، وكان يداعبني ويلاعبني ولكنه كان يوصيني دائماً أن أكون رجلاً وأرعى أمّي وأحفظ اسمه وألاّ ألاحق به سوى الرحمة، وكنت أعده من خلال دموعي بأنني في مستوى المسؤولية وأن عليهِ أن يطمئن في رقدته النهائية إلى أنّه ترك من بعده رجلاً يرعى بيته تماماً كما لوكان موجوداً.

وعشنا في بيتنا الصغير الذى تولت الدولة دفع إيجاره، ودبرنا حياتنا بالمرتب الذى صرت أتقاضاه من المصلحة التي أعطاها أبى كل أيامه. واعتدنا حياة الوحدة، وأحببت أمى أكثر ما كنت أفعل، أعطيتها كل ما في قلبي من حب وعوّضتها عن حب أبي لها بحب أكبر، واجتهدت في سبيل

توفير جميع ما تحتاجه حتى أنها كثيراً ما كانت تتحدّث إلى زائراتها عن قدرتي وحرصي على إسعادها، ولم يكن ينغص أيامي سوى زيارات سيدي سليمان لنا وادعائه قضاء مصالحنا باعتباري صغيراً، وكنت أرفضه، أرفضه بكل غيرة أبي، بكل رغبته في أن يظل بيتنا شريفاً متمسكاً بتقاليده العريقة، وكنت ألوم أمّي في أحيان كثيرة ولكنها كانت تبرر تردّده بأن هناك من الأعمال ما لا أستطيع القيام به، وبأنه حتى أقاربنا تخلّوا عنا وتركونا بعد وفاة أبي، ولم أقتنع طبعاً بالمبرّرات التي كانت تمضغها أمّي، ولكني كنت حريصاً على حسن علاقتي بها وعلى ألا أجرحها بكلمة.

ومضت ستة أشهر، وألقيت في جوفي أول بذرة كراهية حقيقية، وأعلنت لأمي عن سخطي، ورجوتها أن تقلع عن الزينة والخروج إلى الأعراس والأفراح احتراماً لأبي الذي كان يحبّها كثيراً ويغار عليها من الطائر الذكر، ونبهتها إلى أنه لو كان أبي حياً لما سمح لها بهذا السلوك، ولكنها كانت لا تعير صرخاتي وملاحظاتي أي اهتمام.

ذات يوم وجدتها مرتدية أغلى ما لديها من ثياب وكل ما لديها من ذهب، وقد أجادت تلوين وجهها بالمساحيق والأصباغ فبدت جميلة، كما لم تبد في أي يوم من أيام حياتها، وعرفت أنّها مدعوة إلى فرح ووخزتها بملاحظة قاسية:

- إلى بيت العريس رغماً عنك.

كنت أشير إلى مبالغتها في الزينة واللباس، وجاءتني كلماتها فكانت إجابة شافية لكل ظنوني وهواجسي.

- تأخذ السوء... بم تختلف عنى أجمل عروس في العالم ؟ إننى عروس أنا الأخرى...!!

ودفعت بابتسامة متوجسة، وحالت الدموع بيني وبين وجه أمي الذى خلته ملطخاً بدماء أبي، وضربت أول بذرة كراهية حقيقيه جذورها في أعماقي، وانسحبت إلى (المربوعة) أجرّ أحزاني وارتميت على السرير وانتحبت كثيراً وتمنيت أن يعود أبى إلى ملكته ويعفينى من هذه الهموم، وجاءنى أبى بوجهه السمح الحبيب وأخفيت رأسي في صدره، وبكيت كثيراً حتى خلت نفسي أنتهي دموعاً، وظل أبى يشدني إلى صدره ويبكى هو الآخر، وأيقظتني أمي وهددتني بإرسالي إلى أعمامي إن لم أكف عن سخافاتي، وأخفيت رأسي تحت الوسادة وتركتها تذهب إلى الفرح... ومضت أيام كئيبة أعيشها وحدي في (المربوعة)، أجترّ ذكرياتى السعيدة الآفلة وأحلم بلقاء أبى والارتماء في أحضانه، وأحقد على أمّى وأرفض حديثها أو الالتقاء بها ، وتكررت زيارات سيدي سليمان حتى صارت يومية لا مناص من توقعها وقبولها رغم أننى طردته أكثر من مرّة.

وجاء اليوم الذى كنت أرهب لقاءه، وأبلغنى خالى أن المرأة بلا رجل موضع شبهات وأقاويل، وأنه لا يرتضي أن يداس اسمه تحت الأقدام، وأن سيدي سليمان سيرعاني وأمّي خير رعاية، وسيحل محل أبي، وأنه يجب أن أقف إلى جانب أمّي وأبارك زواجها.

ورغم أنه كان يتحدث إليّ، ورغم أننى أدركت كل كلمة من كلماته

إلا أنني كنت أحسّ وكأنه يتحدّث إلى غيري. كلماته كانت تعبر وكأنها لا تهمني. محاولته الغبية كانت بعيدة عن عقلي. ووقف يستشيرني فرفعت إليه عينين دامعتين وابتسمت في ألم:

- افعلوا ما تشاءون... افعلوا ما تشاءون... أنتم أصحاب الرأى... والقرار.

- وكنت أعرف أنني أستطيع أن أفعل أكثر مما فعلت. وأنّ رأيي لا قيمه له. وأنني لست سوى طفل صغير لا يعني شيئا بالنسبه لهم. وانطويت على نفسي بكل أحزاني وأحقادي وكرهي... وأحترق وأحترق... والتقى بأبي في أحلامي ويقظتي . أشكو إليه. وأصرخ. ويظل على صمته لا يستجيب. لا ينطق بكلمة. فقط كان ينظر إليّ بعينين دامعتين معبأتين بالشفقة علي والتجاوب مع أحزاني وكراهية أمّي.

إنني أغفو الآن أيها الكبار. وسأستغرق في نومٍ عميق. وستأتيني الضحكات من الغرفة المجاورة. وسأجترع عذابات الدنيا وأحزان العالم وآلامه. وسأكره أمّي. وأكرهكم جميعاً.. ولكن... معذرة... إذ إنني نسيت أنني أحدّث إلى نفسي.

أقوال شاهد عيان

متكومة فوق فراش المرض، مجرد شيء، أي شيء، وجه أصفرّ ثم أسود و أسنان عبث المرض بجذورها فتساقطت الواحدة بعد الأخرى، شفاه تهدّلت، شعر تساقط فقصر ثم ابيّض حتى صار في لون الثلج، العينان ذبلتا، الجسد الفاره المصقول انكمش حتى صار في إمكان طفل أن يحتويه.

- دنيا...

قال شاهد عيان وأضاف...

١

في العام السادس عشر من بدء الرحلة، لم تكن "حياة" مجرد شيء، أي شيء، كانت وجهاً نقياً في لون الورد، بشفتين صغيرتين شهيتين، وشعر غزير أصفر، طال حتى اجتاز الخصر، وأسنان ناصعة كحبات البرد، وجسد فاره مصقول رغم صغر السنّ.

كل رجل رأى "حياة" لا شك اشتهاها، بينما عشقها كل رجال الحي،

ولكن حياة في العام السادس عشر من بدء الرحلة لم تشتهِ ذكراً ولم تعشق أياً من رجال الحي.

- صبية غزة.

هكذا قال شاهد عيان.

٢

.. في العام السابع عشر من بدء الرحلة، لم تكن ساذجه علي الإطلاق "حياة"، إذ كانت تدرك جيداً أنها فاتنة شهية. وأن الله حباها بجمال خارق دون بنات الحي كلّه، وكانت على صغر نابها، تتلذذ بنظرات الذكور التي تخترق الجسد الشفّاف المكتنز حتى العظم، وتنصب فيه العينين السوداوين إلى أعماق النفس، لكن "حياة" تتلهى، لأن "حياة» في العام السابع عشر، لم تشتهِ ذكراً، ولم تعشقْ أياً من رجال الحي.

-غزّة لعوب.

قال شاهد عيان.

٣

.. في العام الثانى والعشرين، عشقت "حياة" ووقع المحظور، وحلمت بالزوج والبيت والولد، لكن الفتى اليافع الذى عشقته "حياة" لم يشتهها في أى يوم، ولم يعشقها كغيره من رجال الحي، ظل يصب

فتوره على نيرانها، ويدلق غروره على كبريائها، ثم صار يحتقرها، يزدريها، فشأن الفتى اليافع لم يكن قط شأن كل الذكور.

وشحنت "حياة" بتجربة مريرة أحرقت كل نبتة شعور، فصارت مجرد دمية جميلة، قاحلة لا تنبت في تربتها بذور.

حاول الرجال، حاول الفتيان، حاول كل الذكور، لكن "حياة" باردة كالثلج، وصامتة كالموت، لا تحب، لا تكره.

- عاشقة مجربة.

هكذا رآها شاهد عيان.

٤

.. في العام الخامس والعشرين، تزوجت "حياة" من رجل ثري، أعطى أبويها كل شيء وابتاعها في لهفة بكل ما يملك، ذلك لأن «حياة» لم تكن قد بارت بعد، ثمارها بالغة النضج، والرجل الفحل المسن شاء أن يستمتع بما أحل الله من طيبات، فيما تبقى لهُ من أيام العمر تماماً كما شاءت "حياة" أن تستمتع بالمال الحلال.

واستمتعت "حياة" بالمال الحلال، واستمتع الفحل بطيبات ما رزق، لكن الله شاء أن يتوفاه فمات.

ولم تحزن "حياة" شأن كل الأرامل، لم تلطم الخدود أو تشق الجيوب أو

تنوح. فالثروة باقية وليس سواها وريث.

- أرملة لعوب.

هكذا وصفها شاهد عيان.

٥

.. فيما تلا العام الخامس والعشرين من أعوام، صارت "حياة" أسطورة تلوكها ألسنة الفتيان، وتروى مغامراتها العذارى سرّاً في خفر، ذلك لأن "حياة" كانت تعشق الرجل من رجال الحى أو الفتى البكر المفتون، ليوم أو لأسبوع أو ربما لشهر، وتوظف لخدمة عشقها «الشيطان»، والنقود، حتى إذا ما كبلت صيدها بالفتنة والمال، وصيّرته تابعاً والهاً، ارتشفته حتى الثمالة، وقذفت بما تبقى منه خارج حدود عشقها المجنون.

- فاجرة مجنونة.

هكذا صنّفها شاهد عيان.

٦

.. عندما بلغت الثلاثين، لم يعد مجون "حياة" سراً تحكيه العذارى في خفر، أو يهمس به مراهق لغزّ مفتون، أو تتناقله عجائز الحي وشوشه في البيوت الموصدة، إذ صار مجون "حياة" حديث كل العذارى والمراهقين والعجائز، وعلانية دون حياء، حتى خشي كل سكان الحي أن يصاب الأولاد والبنات بطاعون "حياة" فأحاطوها بكراهية سوداء، ثم هدّدوها بالقتل

إن لم ترحل عن الحي.

ونُبذت، فحقدت "حياة" على الرجال، وعلى الفتيان والبنات والعجائز وعلى كل سكان الحي، واسودّت الدنيا أمام عينيها اللتين كانتا جميلتين، وقرّرت الرحيل إلى حي غير ذلك الحي، ومشحونة بالحقد والفجور.

- فاجرة حقود.

هكذا ويها شاهد عيان.

٧

.. في العام الأربعين، وفي "غير ذلك" الحي، حجت إلى بيت الله الحرام، وبدت ثرية ودودة متعبّدة، وتصلى لله في كل وقت، وتعطى من مالها الكثير لليتيم والفقير والسائل والمحروم. فأحبتها كل القلوب، لكن "حياة" لم تحب أحداً، إذ تعلمت الحذر، ووعت تماماً كيف تعامل البشر، وصار همّها أن تبحث عن سبيل مأمون لإخماد جذوة الجنس في الجسد المفتون، فتزوّجت من فتى في العشرين، وأمضت في ربوع شبابه عاماً، ثم طلّقته، فقال سكان غير ذاك الحي، إن الزواج وفق الكتاب والسنّة أمر مشروع، وعن الطلاق كذلك أمر مشروع وإن كره، ومضت "حياة" في اللعبة الجديدة.

- مزواج مطلاق.

- هكذا قال شاهد عيان.

٨

.. في عامها الخمسين، ضجرت من حبّها القلوب في غير ذلك الحي، وخشيت الأمّهات على أولادهن من حبائل العجوز المتصابية، وتمنت على الله كل عذارى الحى أن تموت، ثم حاصرتها تلك الكراهية السوداء، وطلب إليها أن تكف عن جنونها أو ترحل، وانفض من حولها كل الفتيان، ماعدا راغب في لذة عابرة، أو غافل لا يلبث حتى يفيق فيفر، وبدت " حياة " للعيان كمهرج شوه وجهه بمختلف الألوان، والمرأة من غيّها تتصابي وتغوى من دون أن تصيب حتى أقل الفتيان، وجذوة الجنس تلك اللعينة تلهب الجسد، وتعمى العينين اللتين كانتا جميلتين، وحاصرتها تلك الكراهية السوداء بعنف، وطلب إليها أن ترحل أو تموت، وبكت " حياة " كما لم تبك امراة من قبل.

- مهووسة تلك العجوز.

تألم لحالها شاهد العيان.

٩

في عامها الستين، تكومت فوق فراش المرض، مجرد شيء، أي شيء، وجه اصفرّ ثم اسودّ، أسنان عبث المرض بجذورها فتساقطت الواحدة بعد الأخرى، شفاه تهدلت، شعر تساقط فقصر ثم ابيض حتى صار في لون الثلج، العينان ذبلتا، الجسد الفاره المصقول انكمش حتى صار

في إمكان طفل أن يحتويه. وكأن هذه المتكومة فوق فراش المرض لم تكن قط صبية غرة، تلذذت بنظرات الذكور تخترق الجسد الشفاف المكتنز حتى العظم. أوعاشقة في ربيع الصبا تحلم بالحب والزوج والولد. وكأنها لم تكن عاشقة مجرّبة أو زوجة مدلّلة تعبث بالنقود. أو امرأة ناضجة تنهل من معين الشهوة في نهم. كأنها لم تكن.. قط.. كأن قلبها لم يخفق بحب، أو يشحن بكراهية كل البشر. كأن المتكومة لم تكن قط حياة.

وقاطعت (حياة) شاهد العيان بآخر أنفاسها تلفظها في وهن. فطأطأ رأسه وأردف في أسى:

- ها لقد انتهت الرحلة. ها لقد انتهت المهزلة.!

دموع طفل لا يعرفُ الموت

لم تكن الساعة قد تجاوزت الثامنة صباحاً عندما علا الصراخ في الشارع الصغير. وشرع الفزع ثم الفضول يفتحان كثيراً من العيون والأبواب المغلقة طيلة الليلة البارحة. وما أن مضت ساعة حتى كان حوش منزل "عثمان" يغص بالعديد جدا من النساء. وقد تملكتهن هستيرية عنيفة أجيد افتعالها. وأمسك بعضهن بعضيّ. يطرقن بها في قوة صندوق أرملة عثمان الأخضر المرصع بالقطع النحاسية الصدئة. بعد أن أفرغ ما كان يحتويه من ملابس.

واستيقظ أصغر أطفال المتوفي. أيقظته الطرقات العنيفة وصراخ النسوة وولولتهن. وما تخلل كل هذا من هرج ولغط وكلام أتى من حيث تجمع الرجال أمام المنزل:

- فليرحمه الله... لن يفتقده سوى أطفاله.

- لأطفاله رب كريم.

- عثمان رجل مبارك والاّ لما مات يوم جمعة..

- فلنتدبر أمر الدفن حتى لا يسرقنا الوقت.

وقفز الطفل من على السرير المنزوي في ركن الحجرة التي يشاركه فيها أخوته، وظل واقفا لبرهة، فرك عينيه، اندفع خارج الغرفة بأعوامه الخمسة، وسرواله الكاكي القصير وقميصه المقلم عن السروال إثر نومة قلقة، وقدميه الصغيرين الحافيين المتسخين، اصطدم بامرأة كانت تتراجع إلى الخلف وتولى، وقع على الأرض، التفتت المرأة، وسألها فيما كانت تندب حظه وما ينتظره من شقاء:

- ماذا حدث ؟... أخبريني لماذا أنتم هنا ؟

- لمن تركتكم ؟... يا لحظكم العاثر... يا لأيامكم السوداء القادمة...

- لماذا تتجمعن هنا ؟... لماذا تصرخن ؟.. لماذا تكسرن صندوق أمي بعصيكن ؟...

- آه يا صغيري المسكين.. لن ترى بعد اليوم لحظة سعيدة.. ستعيش أيّامك تعيساً مقهوراً.

والطفل لا يفهم شيئا، ولا يستطيع أن يفسّر شيئاً، والمرأة تنخرط في بكاء حقيقي مرّ وتحتضن الطفل في حنان صادق، فيما تجول عيناه الصغيرتان عبر الحوش ليرى ابن جيرانهم الصغير واقفا عند عتبة السقيفة وبيده كرة قدم صغيرة، فينفلت من بين أحضان المرأة، ويسعى في صعوبة من خلال النساء إلى أن يصل حيث يقف الطفل الآخر فيبتسم

- علي.. أكنت تلعب بكرتي ؟..

- جئتكم مع أمي.. وجدت كرتك في ركن الحوش.. لم أجدك.. أخذتها لألعب بها..

- تعال.. نخرج ونلعب في الشارع !

وينصرفان إلى الشارع، ويطلب منهما أحد الرجال أن يبتعدا عن حيث يجلس المعزون، فيجريان بعيدا ليقفا على مقربة، آخر كرسي مصفوف الى الجدار، ويبدآن اللعب.

ويتحرك الجيران والأقارب بسرعة حتى لا يسرقهم الوقت، فيشرعون في إجراءات الدفن، يذهب أحد الجيران إلى البلدية لاستخراج إذن الدفن، وينصرف ثانٍ إلى (سوق الظلام) لابتياع الكفن، ويهرول ثالث إلى المسجد لدعوة الفقيه للقيام بالواجب.

والكراسي القليلة المصفوفة على جانبى الشارع تستقبل الكثيرين لتودعهم بعد لحظات قليلة، فالناس تكره الموت والحزن والولولة، ولا تأتي للتعزية إلا مرغمة.

وتمضى الساعات سريعة متوالية، ويأتى رجل بيده إذن الدفن، وثان يتأبط قطعة قماش بيضاء، وثالث يعلن عن موعد قدوم الفقيه.

ويلوك الرجال أحاديث تافهة عن الشاي المغشوش وطعم لحم الغنم المستورد، والمساكن الحكومية، وشوارع بنغازى المحفورة أبداً، وشركة الحافلات، وأي شيء آخر يستطيع أي من الحضور أن يقول فيه جملة واحدة مفيدة.

عقارب الساعة تطوى الأرقام في جدّ ودأب نادرين، وأصغر أطفال المتوفي لا يعبأ ولا يهتم ولا ينتبه لغير كرة القدم الصغيرة التي يتقاذفها وابن جارهم الصغير.

ويأتي الفقيه، ويختفي داخل البيت ليقوم بالواجب، فيتغير مجرى الحديث بين الرجال ويتحدثون عن الآخرة، وعن منكر ونكير، وعن الصراط وطاعة الله، ويعمّهم خشوع مؤقت يزايلهم لحظة خروج الفقيه، ويعاودهم بعد بقليل، حين يرتفع صوت المؤذن معلناً أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله.

وتتزاحم الأقدام والجثث والايدي حول النعش، لتشارك في حملهِ ولو لمسافة قصيرة حتى ينوبها أجر عظيم، ويظهر أصغر أطفال المتوفي من بين الحشد العظيم، وقد بلّلت وجهه دموع غزيرة، وعلا صوته في نحيب مرّ يقطع نياط القلوب ، وينتبه رجل للطفل ويتألم لدموعه، فيلكز رفيقه مشيراً إلى الطفل:

- أصغر أطفال عثمان.

- أنفاس الولد تكاد تنقطع من البكاء..

- لا ينزل الله بعبده كارثة إلا وغلفها بالصبر..

- له الله.

- وبمضيان..

والطفل يصرخ.

وتهز الصورة رجلاً آخر يسير في مؤخرة الجنازة، فيقف، ويتحرك في اتجاه الطفل، يمسك به، يرفعه ويحتضنه ويدس رأسه الصغير في صدره، يمسح بيده على رأسه، يتمتم في أذنه.

- لا تبك، أنت رجل، عيب أن تبكي..

- لا.. دعني. أنزلني. أريد أن أذهب إلى أبي..

- كن عاقلاً يا صغيري..و..

وينفلت الطفل من بيدي الرجل. غير أن الرجل لا يلبث حتى يمسك به ثانية. فيعود الطفل إلى النحيب ويصرخ..

عني يا سيدي.. دعني أذهب إلى أبي وأخبره أن علياً فرّ بكرتي ورفض أن يعيدها إلي...

ويبهت الرجل. وترتخي أصابع يده. وينطلق الطفل إلى حيث كان ينام أبوه في الليلة البارحة..

زغاريد الملائكة

رغم أنه تجاوز السبعين عاماً بشهور قليلة، إلاّ أنّه مازال يدق الأرض بخطوات صلبة وقامة معتدلة، متحدّياً في شموخ سني العمر الشقية التي وأن تمكنت من طلاء شعر رأسه ولحيته باللون الأبيض، ومن تغليف عينيه بسحابتين صغيرتين رماديتين تضطرانه إلى الاستعانة بعكاز يتحسس به الطريق متى ساءت الرؤية أمام عينيه إلا أنها لمْ تتمكن من فتّ عوده الصلب، أو إحناء قامته المعتدلة.

ورغم أن طبيعة حياته الريفية،، تحتم ارتداءه ملابس متواضعة، تشوهت بطين الأرض وزرعها إلا أنه كان أنيق الهندام نظيفة تفوح منه رائحة طيبة تكسبه وشيب رأسه ولحيته وقارا وهيبة.

هكذا كان يبدو سيدى "الحاج عثمان " في عينى خالتي "مبروكة" عندما كان يدق أرض الممر في "المصلحة " بخطواته الصلبة إلى أن توقف واستند إلى الجدار الموازى للجدار الذى تستند إليه "خالتي مبروكة" وقاعدة في انتظار دورها شأن كل الواقفين في الممر المزدحم.

حّدق سيدى عثمان ملياً في الواقفين والقاعدين وأدرك أن دوره سيتأخّر

كثيراً، فتململ واعتمد على عكازه في وقفته، وعاد يجيل عينيه الضبابيتين عبر الوجوه المحتشدة في الممر الضيق، والتقت عيناه بعيني "خالتي مبروكة"، فبدت له عيناها ودودتين حزينتين، وأحس بشيء ما يشده إلى العينين المغروستين في وجه عجوز مازال يناضل من أجل مسحة من جمال، واستنفذته سنوات العمر الطويل.

قالت خالتي مبروكة مخاطبة "سيدى" الحاج عثمان...

- أقعد ياشائب..إن دورك سيتأخّر ولن تقوى على الوقوف طيلة الوقت.

وبدت له ودودة، وبادلها الابتسامة التي طفحت علي صفحة وجهها حتي فاضت بها عيناها، ولكنه شاء أن يثبت لها أن سني العمر الشقية لم تفتّ في عوده، وأنه مازال قوياً على الاحتمال.

قال "سيدي» الحاج عثمان...

لا....لا داعى لأن أقعد... سأظل واقفاً.

وصمتت خالتي مبروكة فلم تعلق بشيء، إلاّ أن سيدى الحاج عثمان شرع يتأملها في ودّ، فبدت له في الخمسين إن لم تكن قد تجاوزتها، غزا الشيب شعيرات رأسها فكافحته بالحناء، ونال منها الفقر إلاّ أنّها حرصت على مظهرها من خلال ردائها النظيف المتواضع، الذى تلفه في عبايتها حول جسدها العجوز، وعاد ذلك الشيء الذى يشده إلى عينيها الودودتين الحزينتين يدغدغ أعماقه في حنو، وأحس بندم لرفضهِ دعوتها له بالجلوس، وشرع يفكّر في طريقة تصل ما انقطع من حديث.

وخرج من أحد المكاتب المجاورة عجوز آخر يدق الأرض بعكّازه في غضب، واستوقفته خالتي مبروكة متودّدة...

- خير؟... إن شاء الله خير ياسيدى حمد؟

- ووقف "سيدى" حمد يتصفّح وجه العجوز التي كانت تبدى لهفة حقيقية وانتبه إلى أنّه كان يقعد على الأرض في الممر بجوارها، وأنه بادلها الحديث لدقائق، فابتسم رغم غضبته، وأجاب التي مبروكة..

- أجّل الموضوع إلى موعد آخر شأن كل مرة... إن المصالح الحكومية تجيد فن المماطلة إجادة أصيلة...كان الله في عوننا...

وانتبهت خالتي مبروكة إلى سيدى الحاج عثمان يتابع حوارها مع الرجل في قلق، ذلك لأنه ربما.. ربما.. من يدري؟

وابتسمت ابتسامة حقيقية صوبتها نحو "سيدى" حمد بعدما قررت أن تلعب – كأنثى – لعبتها، وشدتّ سيدى حمد من طرف عباءته:

- اقعد أرح نفسك قليلاً... لا يجدر بك أن تخرج وأنت على هذه الحال من الغضب.

- وقعد سيدي حمد على أرض الممر بجوارها، وشرع يشرح لها من جديد تفاصيل موضوعه الذى بلغ حدّاً من التعقيد لم يبلغه أي موضوع آخر، وبدت خالتي مبروكة مهتمة حتى بأدق تفاصيل الموضوع، مغفلة سيدى الحاج عثمان تماماً، وإن كانت تسترق إليه النظر بين حين وحين لتتبين مدي تأثير لعبتها عليه...

ومضى وقت استنفد سيدى الحاج عثمان خلاله ذخيرته من الصبر،

وأفرغ أثناءه سيدى حمد ما في أعماقه من شكاوى وأحزان. ونهض سيدى حمد وودعته خالتي مبروكة بدعواتها من أجل أن يكون الله في عونه. وقرر سيدى الحاج عثمان أن يلقى بالعناد والكبرياء جانباً حتى سنحت الفرصة. وسنحت الفرصة في التو. إذا ما لبثت خالتي مبروكة أن دعته إلى الجلوس بجوارها في لهجة مبطنة بالبراءة.

- تعال أقعد يا شائب.... إذ يبدو لي أنك لم تعد تقوى على الوقوف.

ودون أن ينطقّ بكلمة خطا خطوتين في اتجاهها. وقعد إلى جوارها مستنداً إلى الجدار ذاته الذى تستند إليه. واحتواهما الصمت للحظات. وقررت خالتي مبروكة أن تبادر بالحديث:

- مسكين ذلك الرجل الذي مضى منذ لحظاتٍ. إنه...

وأشاح عنها سيدى الحاج عثمان بوجهه. ونفث أنفاساً حارة محملة بكل ما اختزنه خلال انتظاره من غضب. وكأنه يحتج على حديثها عن غريمه. وانتبهت خالتي مبروكة إلى هفوتها التي ما لبثت أن بدت تكلمة موفقة للعبتها الأنثوية المحبوكة. فصمتت وابتسمت ثم استطردت:

- لا بأس يا حاج...؟

- يبه... وما الذي يجيء بنا إلى غير البأس؟...

- دنيا.. لم ترحنا من مشاكلها ولا أراحت نفسها منا...

- صدقت. مشاكل. مشاكل. كان الله في عوننا...

- ما هي مشكلتك ياحاج؟...

- أرض... أرض اشتراها والدى من الحكومة التركية عندما كانت تحكم البلاد. وعادت الأرض إلى بعد وفاة والدى... سفحت من أجلها العرق إلى أن استصلحتها وزرعتها فصارت تعطى ثماراً طيبة. أقمت فيها بيتى، وعشت على ترابها ألثم حباته عند كل صلاة شاكراً الله علي نعمته. إلا أنه تبين. منذ عام أو أكثر – أن الأرض غير مسجلة باسم والدي.. تصوري...

واستوعبت خالتي مبروكة قضية الرجل جيداً. ومضت تناقشه بحماس دافق، مؤكدة له أحقيته في ملكية المزرعة والبيت قبل غيره، محاولة قدر جهدها أن تقترح عليه المسالك المؤدية إلى ضمان حقّه حتى بدت في عينيه خبيرة بكل المسائل في كل المصالح الحكومية، لكنها بدت، وبدرجة أكبر وأوقع في نفسه، مهتمة غاية الاهتمام بأحزانه ومشاكله.

قالت خالتي مبروكة وكأنها استدركت:

لكن.. لماذا لا توكل الأمر إلى أحد أولادك ؟... إن قضيتك تحتاج جهداً وصبراً..

وابتسم سيدى الحاج عثمان في مرارة.

أولادى ؟... أين أولادى ؟. بنت تزوجت منذ سنوات ولا تزورنى إلا في المناسبات لأنها تعيش كأخويها في المدينة.. والولدان لا يزوراننى إلا في المناسبات ويلحان عليّ أن أترك المزرعة وأعيش معهما في المدينة. لا يهتمان أبداً بتراب الأرض الذى عشقته.

قالت خالتي مبروكة:

- يا سيدى.. البركة في رفيقتك.. أما الأولاد فهذا شأنهم.. يكبرون.. ويتزوجون ويمضون..

وعاد سيدى الحاج يبتسم في مرارة، وذلك لأن رفيقته مضت هي الأخرى إلى ربها منذ سنتين وليرحمها الله، لقد كانت حبيبة حقيقية، منحته الحب في سخاء، ومنحته الوفاء في غير ما تقتير، عملت معه في الأرض، وعملت من أجله في البيت، وما انفرجت شفتاها قط عن ابتسامة إلا وكانت صدى لابتسامة بدت على شفتيه.. أما الآن... فإنه يعيش في البيت الكبير وحيداً... بلا رفيق أو أنيس، يمضى لياليه الطويلة الباردة في صقيع الريف وأيامه الشقية المضنية في الإشراف على العمال.

وتأوه في أسىً، وكأنه شاء أن يطرد كل هذا الأحزان ليخلص لخالتي مبروكة من جديد.

قال سيدى الحاج عثمان:

- إننى بلا رفيقة.. لقد ماتت منذ سنتين..

- ورغم أن خالتي مبروكة شاركته أساه إلا أنها أحسّت بفرحة تزغرد في أعماقها، إذ ربما.. ربما... من يدرى؟..

قال سيدى الحاج عثمان معتذراً "

- لقد نسيت ما الذى جاء بك إلى هنا ؟

- قالت في ودّ:

ألم تقل لا يجيء بنا إلى هنا غير البأس.. ابنى.. إن ابنى يرفض أن يدفع لي ما يمنعنى من إراقة ماء وجهى في سبيل لقمة.. إنه يعيش وزوجته في بذخ ويتركنى للغرباء..ألم أقل لك إن الأولاد يكبرون ويتزوجون ويمضون..

وتساءل سيدى الحاج عثمان:

- لكن أين تعيشين ؟.. أعنى مع من ؟...

أجابت على الفور:

- مع ابنتى الوحيدة.. أعنى طرف صهري.. منذ توفي الشائب.. رحمه الله..

قال سيدى الحاج عثمان.

- كان يجب أن تقيمى مع ابنك..

وردت في مرارةٍ..

- ابنى لم يعد ابني.. إن القيادة في يد زوجته.. وزوجته تكرهني..

ونضحت عيناها بدمعتين حقيقيتين بينما غاصت في قاع العمر السحيق، تستعرض تلك السنوات القصية أيام كانت فتاة تزهو بزينة الحياه الدنيا، والولد والبنت والزوج... والشباب والأحلام السعيده بشيخوخة مرصعة بعدد من مرات الحجّ إلى بيت الله الحرام.. أيام.. يا أيام العمر..

واستغرق سيدى الحاج عثمان في عينيها الدامعتين، ليبحر عبر

الدموع والأحزان إلى أعماق فيستقر في قاع ذاتها، أملاً جديداً، وعمراً جديداً، وحياة جديدة، ولم يفق كلاهما من استغراقه إلا على صوت المنادي يدعو خالتي مبروكة إلى المكتب المجاور، فتململا، ومضت خالتي مبروكة إلى شأنها، ثم عادت لتودّع سيدي الحاج عثمان، لكنّه شدّها من طرف ردائها فأقعدها إلى جانبه، وهمس لها في ودّ:

- انتظريني.. سنخرج سوياً.. وربما سنرحل معاً إلى مزرعتي..

وانتظرته، وخرجا سوياً، ولا شكّ في أنّهما رحلا معاً، إذ تناهت من الآفاق البعيدة زغاريد ملائكية مبتهجة بالحدث السعيد.

بندول الزمن

- تيك... تاك... تيك... تاك

رتبت يا بندول الزمن الغادر، ملّ أنت وقاتل، ولكنّك مقتول بالزمن الأبدي، ستصدأ، تتآكل، تنتهي، شأن كل الاشياء، والزمن باق.

- تيك... تاك... تيك... تاك

وانفتح الباب، خرج ذو المعطف الأبيض، يتعثر، عيناه حائرتان، تصفح كل الوجوه المرصوصه على الكراسي، ارتدّ خطوة إلى الخلف دفعهُ إلى الأمام خطوة، نهدان نافران في صدر ممرضة شابة، استحييت ، و استحت، قلت في خاطري، ما أحلى رحيق الحلمتين النابتتين في صدر شاب، ثم قال جدي في أعماقي: استح خزالك الله.

- تيك... تاك... تيك... تاك

همس الطبيب في أذن الممرضة، أشارت بسبابة بلورية صوبي وانتابني خوف، داهمتني رغبة الفرار وجاءاني، يا إلهي، ماذا يريدان ؟ إني خائف لأني صرت أخشى أن يكونا قد أدركا ما يدور في رأسي عن رحيق الحلمتين، وقفا بجواري:

- هل أنت زوج الأخت ؟

وأشار ذو المعطف الأبيض نحو الباب الذى كان انفتح. لم أنطق، إذ كان يخاطب آخر في قاع أعماقي. وهو أنا. لكنه ليس أنا الذى يحدق في شفتى ذات النهدين النافرين. إلا أن شفتيها انفرجتا عن ابتسامة عذبة. قالت:

زوج الأخت التي ستلد؟

أجبت:

- نعم !

وكان يجب أنْ أقف. لكننى ظللت جالساً. شدنى ذو المعطف الأبيض من معصمي. نهضت وكنت متهالكاً. فالليلة البارحة كانت مضنية. قال في حزم..

- الولادة الأولى تكون في الغالب صعبة. حالة زوجتك صعبة. لابد من إجراء عملية ولا أخفيك ستكون خطرة. خطرة وعلى مسؤوليتك. لكن الله معنا. وقع هنا.. وهنا.. وهنا...

وقعت قضي الأمر. غمرتنى تعاسة إنسان مذنب. كانت قاسية. بحجم خطيئتى. فحليمة كانت وردة رائعة في حديقة الحياة. أغراني شذاها دون باقى الورود. اقتطفتها شأن كل الرجال من حديقى الحياة. امتصصت رحيقها على مدى عام منك أيها الزمن الغادر وتكورت بطنها. انتفخ ساقاها. صارت تكرهني بينما انفر منها أنا. فيا أيها الجنس الكافر. ليتك يموت في ذواتنا ويبقى الحب دفاقا صافياً.

- خرّف !

قال رجل يقبض على يد طفل لرجل آخر.

أضاف الرجل بينما كان يحدّق في عيني الرجل الآخر..

- المال والبنون زينة الحياه الدنيا. وليس ثمة عاقل يكره هذه الزينة. انظر، هذا الطفل يحمل الرقم الحادى عشر. فلقد وفقني الله إلى امرأة كما أرنب. لا تعيش حياتها هدرا. كل حين تلد طفلاً رائعاً كهذا. والأرزاق على الخلاّق.

- تيك... تاك... تيك... تاك

بدت الممرّضة متوهجة الشفتين. متوردة الخدّين حين واجهتنا مهرولة. عندما تجاوزتنا تمكنّا جميعاً من معاينة ساقيها الجملتين دون حرج. أما أبو الطفل الحادي عشر فقد نزع طاقيته وحك رأسه وقال محدثاً للرجل الآخر:

- يا ما شاء الله !

ثم قال يكمل حديثاً يبدو أنه كان قد بدأه:

والتفت نحوي، ثبت عينيه في عيني، قال:

- لم لا تتكلم ؟!

قلت في خاطري ولم تحقد ؟ ولم تكره ؟ ودفعت إليه بابتسامة مجاملة. شعرت بأنها جاءت سخيفة. تضايقت من سلوكي، وتضايقت من الرجل أكثر. قلت في خاطري أيضاً. لا أجد ما أحكيه عن مشاعري.

فأنا لم أعد أحب، لم أعد أكره، صرت مجرّد وعاء نحاسي فارغ، بارد، بارد، يا أيها الزمن الغادر، يا أيها الزمن القادر.

جاءت يتقدّمها شرطي، وكانت تبدو كسيرة، في عينيها السوداوين ذلّ، في مشيها مهانة، تؤلمني جداً رؤية الجمال كسيراً ماذا أستطيع أن أفعل بالألم لأجلها، اختفت في الإدارة يتقدّمها الشرطي، سمعت الرجل يقول للرجل الآخر:

- اِرْعَ الولد.. سأعرف الحكاية.

- فيما أيها الألم الكبير ترفق بهذه الصبية وبكل صبية، يا أيها الألم الكبير ما خلقت مثل هذه الأشياء الجميلة لأجلك، أو لكي يعسكر في عينيها ذلّ أو تربك خطواتها مهانة، لكنه الزمن الغادر، يشوّه كل جميل رائع، يحطم، يدمر يستهلك كل الأشياء، يقتل كل الأشياء

سمعته يقول:

- لم أعرف الحكاية، لكنها دون شك، مفضوضة البكارة على يدي عاشق.

- ونودي على الولد الحادي عشر ومضى الولد في ثوبه الأبيض الفضفاض المزركش بالزعفران إلى غرفة العمليات، شئت أن أغتنم الفرصة:

- مبروك.. ختان؟

ابتسم في زهو وكأنه انتصر على صمتي:

- اللّه يبارك فيك... ختان طبعاً... ألا ترى أنه كبر بما فيه الكفاية... وأنّه صار لزاماً علي أن أختنه ؟... أخوه...

ولم أنتبه لبقية حديثه، و ذلك لأن تلك الصبية المسكينة، يتقدّمها الشرطي، بانت تجرّ قدميها بصعوبة بالغة، وكأنها تنوء بحمل المخطئين في كل الدنيا، تلقفتها العيون بخبث، ولكن الشارع الكبير احتواها فاختفت.

قال الرجل الآخر:

- أبداً... أبداً... دعك من العقارات... الإيجارات لم تعد مجزية، بعْ ما عندك وتاجر في مواد البناء.. إن أنتَ فعلت، ستعيش سلطان زمانك.

للرجل، قلت في خاطري، لأنني كنت أخشاه، خرّف، هل للزمن سلطان أيها الرجل الغافل ؟ إن الزمن الغادر هو السلطان.

علت صرخة وليد وترددت أصداؤها في أعماقي، الإناء النحاسي الفارغ صار رنّاناً، حليمة تلك الحلوة الوديعة صارت أماً، الفرحة في عينيها أكاد أرها، ولد تتمنى أن تلد، إنه لولد أكاد أراه، فاللّه رغم الزمن الغادر لاشك، يستجيب لأمانيها، تختال بين الجارات مزهوة بالابن البكر، بالعمر البكر، بالدفق البكر، أكاد أرها، والابتسامة الطفولية تنساب من العينين على الشفتين، تضيء الوجه، تطيل العمر.

وعلت صرخة أخرى، فانتابتني رعشة، حجر ناري قذف في أقصى أعماقي، تملكني خوف مرعب، ثم، هذا الإناء النحاسي عاد بارداً يا أيها

الزمن الغادر، يا أيها الزمن القادر.

- تيك... تاك... تيك... تاك

وخرج الطبيب ذو المعطف الأبيض، جاءت من ورائه الممرضة الشابة ذات النهدين النافرين، وقفا قبالتي، اخترقت نظراتي المعطف والحمالة إلى النهدين الشابين، يبدو أن ذا المعطف الأبيض كان يحدّثني، إذ أردف في رأسي:

- ولكل أجل كتاب... فليرحمها الله.

أضافت الممرضة الشابة:

- جلّد.. اعتنِ بالوليد.

تابعت حركة شفتيها، شفتاها متوردتان شهيتان، صدرها نافر، حليمة التي ماتت، هي الأخرى كانت بشفتين متوردتين شهيتين، وكانت ذات صدرٍ نافرٍ، لكنها ماتت.

- تيك... تاك... تيك... تاك

رتيب يا بندول الزمن الغادر، ملّ أنت وقاتل، لكنك مقتول بالزمن الأبدي، والزمن باق، والزمن باقٍ...!!

الموجة والرحيل

الشاطئ كان مترامي الأطراف، لكنه كان يبدو للمتأمل من طائرة في السماء كحدوة حصان أسطوري، تبعثرت على سطحها مظلات وخيام صغيرة زاهية الألوان لجأ إلى ظلالها المصطافون، بينما تلألأت حبات الرمل الأصفر تحت أشعة الشمس المحرقة، وبدت مياه البحر الهادر ناصعة الزرقة.

كانت اللوحة في غاية الجمال، داعية إلى التأمّل في هذا الكون الرحب المتفاعل . لكن الذي كان أدعى التأمل حقاً، هو ذلك الطفل العنيد، الذي رفض أوامر أبويه باتقاء ضربة شمسٍ قاتلة، ومضى يحفر بأصابعه الصغيرة جُويفاً في الرمال عند حدود أبعد موجة على الشاطئ؛ يخمد هديرها بانتشارها على الرمال.

بدا الطفل مثابراً وكان يضايقه انهيار الرمال في التجويف، لكن إصراره كان أعتى. فمضى يحفر ويحفر، ويرفع الرمال المنهالة من داخل التجويف فيقذف بها بعيداً إلى أن لامست أصابعه الصغيرة الرمال الندية، فتفاءلت قسمات وجهه، وما لبثت أن أشرقت بابتسامة عريضة

عندما ارتفع منسوب المياه في التجويف، ونجحت محاولته العنيدة.

- اسمع يا ولد... تعال... خذ.. كل...!

صرخت أمه بأعلى صوتها كي يخترق الصوت هدير الأمواج إلى أذنى الصغير لكن الصوت ضاع عندما انطلق صفير مجموعة من الشبان قُصد به المضايقة والاحتجاج.

التفت إلى حيث التفت إلى حيث بعض المصطافين، وفوجئت للوهلة الأولى بأشقر طويل، وقد أطبق بشفتيه على شفتي فتاته وبينما التصق بها وقوفا دون أن يعبأ بعيون الفضوليين أو بالضجيج من حوله.

قال رجل مسن، ضخم الجثّة، تكور أمامه بطنه، حاول أن يتحدّث إليّ منذ فترة:

- هؤلاء النصارى تماماً مثل القطط!!

لم أعلق، اكتفيت بابتسامة مجاملة بينما استطرد هو في قلق مضحك:

- أبداً.. إنهم لا يستحون.. لا يستحون أبدا..

نزع شفتيه من شفتيها، انفك عنها في لطف، التفت إلى حيث تجمهر عدد من الشبان، حدق الأشقر الطويل في استغراب، حنق الرجل المسن ذو البطن المتكوّر، أضاف غاضباً:

- كأنّه لم يفعل شيئاً.. هذا النصرانى..

اعتقدت أننى سأستثيره:

- شباب... يا سيدي... شباب...

لم أفلح، ذلك أنه ابتسم في دهاء وجر جثته الضخمة يتقدمها بطنه المتكور حتى كاد يلتصق بي، همس بينما كان يغرز في ساقي رفيقه الأشقر الطويل:

- ساقاها... ساقاها... لا أروع ولا أجمل منهما رأيت أبداً.

انطلق الصوت محتد:

- اسمع يا ولد.. تعال.. تعال.. وإلاّ فإنني..

أجاب الطفل:

- حاضر.. حاضر..

إلاّ أن الطفل لم يستجب للنداء حتى أن أباه خفز لإحضاره، لكن أمّه رجته بعينيها ألاّ يفعل، فاستجاب على مضضٍ، بينما مضى الطفل يمهد براحته مساحة من الأرض إلى جانب التجويف الذي كان قد حفره، يلتقط بأصابعه الصغيرة العيدان والعلب الفارغة والفضلات المتيبسة فيرمي بها بعيداً، ثم يمهد تلال الرمال الصغيرة بصبر لا ينفذ حتى استوت المساحة التي كان حددها على الأرض، فأشرق وجهه من جديد بالابتسامة العريضة ذاتها، لكن وجه الصغير الجميل كان قد بدأ يتصبب عرقاً، والأب الذي يتابع عناد الطفل على مضضٍ كان بدأ يفقد صبره، فجاءت استجابة الطفل لنداء أمّه في الوقت المناسب.

- أقعد هنا في الظل.

هكذا قال أبوه يأمره. نظر في عينى أبيه. فرأى أن لا مجال للرفض، انصاع مكرهاً ارتمى إلى جوار أمّهِ. تناول شطيرة. كانت أعدتها له. شرع في التهامها بنهم . فترت غضبة الأب. قال:

- ما الذى كنت تفعله ؟!

- حفرت بئراً ومسحت قطعة أرض..

- ولِم؟!

- سأقيم مزرعة وسأبنى قصراً..

قالت الأم:

- لا ترهق نفسك يا صغيرى.. كُل.. اشبع.. استرح قليلاً ثم خذ كرتك والعب..

قال الأب:

- في كلتا الحالتين يلعب.. يعبث.. في كلتا الحالتين الوقت مهدور ومنتهٍ...

قال الرجل المسن ذو البطن المتكور:

- هواء البحر منعش ورائع.. لكنه يجعلنى أجوع.. إننى جائع جدّاً.

استل عينيه من ساقي الصبية التي كانت تمددت إلى جوار رفيقها. وصوّبهما نحو قفة على مقربة منه. تناول رغيفاً. وثانياً. وثالثاً وكومها أمامه على صحيفة. خاطبنى متوددا:

- تفضل..

كانت الأرغفة محشوة بالجبن والتونة والهريسة والطماطم وتوابل مختلفة. شكرته فأصرّ لكننى أقنعته بشبعى. فامتدت يده إلى الرغيف الأول وشرع في التهامه بشهية غريبة.

انهماك ذى البطن المتكور في التهام الأرغفة منحنى فرصه التلصص على ذلك الأشقر الطويل. وقد تمدد على بطنه وغرز مرفقته في الرمال إلى جوار الصبية . بينما بدت عضلات جسده النحاسى القوى لامعة تحت أشعه الشمس. وقد تبللت بقليل من العرق وكذلك. منحني فرصة تأمل تلك الصبية رفيقته. وقد تمددت على ظهرها مستمتعة بأشعة الشمس غير عابئة بتحول بشرتها البنية إلى اللون الأسمر. ولعلها أيضاً كانت مستمتعة بسعادة عارمة. ذلك لأن الأشقر الطويل. كان يداعب عنقها المرمري بأصابعهِ تارة وبشفتيه تارة أخرى.

اختار الطفل موقعاً وسطاً من الأرض التي كان قد مهدها وطفق يكوم في الموقع ما يستخرجه من رمال مبللة في عنادٍ وصبرٍ. إلى أن تمكن بعد جهدٍ من تشييد قصر صغير. لكنه شامخ عال. بنوافذه الكثيرة. وشرفاتة العريضة. وأبوابه المتعددة. وأشرقت من جديد تلك الابتسامة على وجهه الصغير.

- هع..

تجشأ الرجل ذو البطن المتكور. تقززت. بحثت عن عينيه . وجدتهما مغروزتين في ساقي رفيقة الأشقر الطويل.

قال دون أن يحيد عينيه عن ساقى الصبية.

- ألم أقل لك إن هواء البحر يجعلني أجوع.. هع.. الحمد لله.

كانت الأرغفة الثلاثة قد اختفت بكل ما تحتويه، بينما ظلت عيناه بكل ما تحتويها مغروزتين في ساقي الصبية، أضاف:

- لو كانت لي هذه الصبية.. لما أريتها نوراً.. واحدة كهذه مكانها غرفة مظلمة لا تبارحها.. هع.. الحمد لله..

واجتاحني حقد مفاجئ نحوذلك الشيء المتكور البطن، وقد بدا في سروال البحر قبيحاً على نحو لمْ ألحظه منذ البداية، فساقاه وذراعاه طويلة، نفرت منها عروق عديدة ونبتت عليها شعيرات في مجموعات متناثرة، ورأسه حليق وعيناه نهمتان جائعتان، للطعام، و للجنس، لكل شيء.. وكبر حقدي على ذلك الشيء المتكور البطن حتى فاضت به عيناي، ولعله لاحظ ذلك لأنه تساءل في جزع:

- لا بأس ؟!

لكنني لم أجبه بل تماديت في تأمّلهِ متقزّزاً، هذا الشيء العفن المتكور البطن، الذي يجوع فيأكل حتى يشبع، ويظمأ فيشرب حتى يرتوي، ويضاجع برغبة ويضاجع أيضاً بلا رغبة حتى يتكرر فينتشر، ويفزع حتى يطمئن فيأمن..و..و..و...

وما لبثت حتى رأيت كل أولئك الذين من حولي، الطفل العنيد، الفتى الأشقر الطويل، فتاته الصبية الحسناء، أم الطفل وأباه، رأيتهم، جميعا، ببطون متكورة، ورؤوس حليقة، يلهثون، والعيون نهمة جائعة، وأنفاسي تضيق، والعالم يصغر، والعيون.. العيون.. العيون..

- لا يملأ عينى بنى آدم إلاّ حفنة التراب.

هكذا انتزعنى ذو البطن المتكور من هذيانى. لم يكن يغرز عينيه في ساقي الصبية لأنّها كانت تلاعب رفيقها في البحر سباحة.

أجلت عينى عبر الشاطئ الكبير. كان كثير من الخيام الصغيرة والمظلات الزاهية قد رفع بعد أن غادر كثير من المصطافين الشاطئ، ولم يبق على حالهِ سوى ذلك الطفل العنيد يغرز العيدان في حدود قطعة الأرض التي مهدها وبنى في وسطها قصراً مقيماً بذلك سياجاً حول القصر والمزرعة والبئر.

اندفعتِ الصبية من البحر تجرى يطاردها رفيقها. أمسك بها فأفلتت. وجرت فجرى من خلفها إلى أن أمسك بها. احتضنها. قبّلها في شفتيها. تضاحكا. أسعدنى ذلك المرح. إنهما عاشقان حقيقيان. يعيشان الحياة كما ينبغى.

قال ذو البطن المتكور:

- سعيد جداً بمعرفتك.. لكننى سأتركك وأرحل.

أجبته مجاملاً:

- سعيداً أنا الآخر.. كلنا سنرحل..

أحاط الأشقر الطويل خصر رفيقته الصبيه بذارعهِ ومضى. التقط ذو البطن المتكور القفة ومضى. ونهضت أرتدى ثيابى. بينما اختفي قرص الشمس الدامى في الأفق البعيد. وعلت أمواج البحر فتمادى يهدر

ويزيد. وفاجأتني صرخة حادة مزقتني بضراوة. فالتفت مذعوراً لأجد الطفل ذلك العنيد يندب حظّه. إذ حدث أن دمّرت موجة عاتية القصر والمزرعة. والبئر. أتت على كل شيء فحولته إلى فناء.

قال أبوه مواسياً:

- لا تبكِ.. لا شيء يهم.. هيا بنا..!

لكن الطفل مضى يبكي في لوعة حقيقية. ويدق الأرض بقدميه رفضاً. بينما انشغلت عنهُ أمه بالاستعداد للرحيل غير عابئة. ومسح أبوه بكفهِ على رأسه في حنان:

- قل لي.. قل لي.. هل كنت ستأخذ المزرعة والقصر معك عندما ترحل ؟!

ويبدو أن السؤال قد فاجأ الطفل العنيد الغرّ. فكفّ عن النحيب وحدّق في عيني أبيه بذهول.

قالت الأمّ. وقد فرغت من الاستعداد للرحيل:

- قالت له منذ البداية.. خذ كرتك والعب.. اعبث.. ولا تكترث..

قال الأب:

- كلتا الحالتين لعب.. عبث.. وفي كلتا الحالتين الوقت مهدور ومنتهٍ..

ثم قال للطفل:

- أما قصرك والمزرعة.. دمرتهما موجة أو لم تدمرهما.. في كلتا الحالتين ستخسرهما.. لأنك سترحل.. سترحل يا صغيري..!!

كحل العين

قدري، قيل لي، في كل الأوقات، منذ الصغير، أكاد أستقر، أعتاد الاشياء، تألفني الأمكنة و أرتاح قليلاً، لكنني أرحل، مرغماً، أتوق إلى الخلاص دون جدوى.

قدري، قيل لي، وجعي، ذاك الذي في داخلي، لا يسكن أبداً، إن فعل، فلكي يفاجئني بألم أكبر، بوجع أكثر، لكي يعذبني بقدر كاف لأن أهرب منه به إلى حيث لا أدري.

- كفاك ترحالاً ياحبيبي.

كانت تقول.

وترنو بعينين صغيرتين كحيلتين جميلتين لا تكادان تتسعان لكل ما تمور به أعماقها من حب وشوق وعتاب، فلا أحتمل أن تنوءَ عيناها بكل هذا الدفق الهائل من المشاعر والأحزان، ولعل جلّ ما كان يقلقني دوماً ذاك الحزن المختبئ في أعماق العينين الصغيرتين الكحيلتين الجميلتين، لكنني كنت لا ألبث حتى أجاوزه في معظم الأحيان انبهاراً بمشاعر الفرح والحب التي كانت تغمرني بها حبيبتي كلما لقيتها، أيضاً، لم

أكن أريد أن أفسد سعادة الدقائق القليلة السانحة بعد غيابٍ طويلٍ.

وأستسلم للصوت الحالي يداعبُ أوتار القلب المرهق:

- جئت يا حبيبي فلا تغادر.. كفاك ترحالاً وكفاني عذاباً.. ابق.

أجيب العينين الصغيرتين الكحيلتين الجميلتين دون أن أنبس بكلمة:

- أيتها الأغلى.. يا حبيبتي.. لا تغضبي.. ما جئت من الأقاصي لأوجعك.. جئت يا حبيبتي كي أغفو على صدرك طفلاً هدّه التعبُ، دمرتهُ المعاناة والترحال والغربة، لايكاد يذكر أمسه، لا يكاد يعي يومه، لا يكاد يتبين آفاق غدهِ، جئت يا حبيبتي ككل مرة كي أغمض عيني وأسكن إليك فأرتاح، أغتسل، أتوضأ، أتطهر، أتكحل، أصلي في محراب حبك ركعتي عشقٍ، ألوذُ بك شأن طفل لجأ مذعوراً إلى حضن أمهِ إثر ضنك وفزع لتحتويني كلّ مشاعر السكينة والأمان.

وأبدو في العينين الصغيرتين الكحيلتين الجميلتين كما طفل أغضب أمّه لكنه يصبو إلى أن يفترّ ثغرها عن ابتسامة في لغة الحب الأكبر، عفواً يكتسح بكل جلال دفقه جميع الذنوب والأخطاء، وتعيدني بالفعل طفلاً صغيراً، تقعدني على الحصيرة إلى جوارها وتتجرد ذاتي من كل الطقوس التي تحاصرني بعيداً عنها، أحس في التو بصفاء وسكينة رائعتين، وكأن كل الجراح قد اندملت، كل الأوجاع قد سكنت، كل الرؤى قد اتضحت، كل الآفاق قد رحبت خضرة وفرحاً وخيراً ونماء.

وبدا لها أن العائد من السفر يتوجع إذ وجدتها تقول في حنوٍ مهادنٍ:

- اتكئ فأنت متعب.

وتربّت على رأسي، تتحسس جبيني، تهمس:

- رأسك ساخن.. أمريض أنت ؟.. قبل أن تجيء.. لا أدري.. قلبي أخبرني.

- لست مريضاً.

أقول لها ثم أستطرد:

- إنني مرهق.

وأحس أن الإرهاق وحده لا يكفي لاستدرار ما يجب أن أتزود به من حب فأدعي المرض كي أتوسد حنانها وأغفو، وأخلع عني فزعي وأحزاني، همومي وتعاستي، وأغفو كما طفل تضيء ملامح وجهه الصغير ابتسامه كانت طوتها سنوات الغربة تحت ظلال تجاعيد الوجه الكالح في أقاصي أعماق اليأس، لكنني أخشى الفزع الذى يضنيها كلما بدا في الأفق أذى دنا مني أو كاد، فأمتنع.

كان يروق لها دوماً أن تلاطفني بعد فورة الغضب والعتاب إدراكاً منها ربما لحجم معاناتي، أو ربما كانت تبتغي مواساتي، ذلك لأنني كنت الراحل أبداً خارج الحب والبيت والوطن.

- احكِ.. هه.

وتتدفق الكلمات من أعماق الذات دونَ عائق، دون خوف، دون ترتيب، دون تردد، دون إمعان في التفكير، تتدفق الكلمات المختبئة في الأقاصي، فرحة طليقة، حرةً، مبتهجة، فأخالها تصيب منها العينين الصغيرتين

الكحيلتين، تضيقان فأدرك أن الإصابة موجعة، تتسعان حتى تبدوان كما صغرهما فأعرف أن الكلمات مبهجة، لكنني في الحالتين كلتيهما كنت لا أكترث، لا أبالي، كما لوْ كنت أحدث إلى نفسي، فقد كنت أحدث اليها حبيبتي.

قالت – تناولتي كوب الشاي الأخضر -:

- لو لم تكن أنت أنت.. الأحب الأغلى.. لتصورت انك تخدعني.. فأنت تجيء تغدق عليّ من الحب ما لم يغدقه أحد، أتمنى عليك أن تبقى، فالحياة أنسة يوم من يوم، لكنك تتزود وترحل، تغادر إلى دنيا الله الواسعة ككل مرة، وتتركني ألوذ بالخواء وحيدة.

كانت تتحدث في لوعةٍ، كنت أتلقى في صمتٍ، بدت في العينين الصغيرتين الكحيليتين الجميلتين دمعتان، قبضت بيمناها البضة الصغيرة طرف ردائها، مسحت الدمعتين، دفعت إلى شفتيها بابتسامة، قالت بصوت مشوب بأعراض رغبةٍ مكبوحةٍ في البكاء:

- اشرب الشاي.

ليتك أيتها الأغلى تدركين أن الخواء قدري وليس قدرك.. صدقيني يا حبيبتي.. كل أرض الله تلك ذات الاتساع غير المحدود بكل ذاك الضجيج والأضواء والحياة ليس سوى خواء بدونك، أما الامتلاء بكل ما هو رائع وجميل فهو هنا ، حيث أنت في " زنقة العويلة " ذات المشاعر البكر والأحاسيس العفوية والحكايا الحميمية والسلوك غير المبرمج والحب وكل الحياة.

غالبتها دمعتان أخريتان، عزّ على نفسي أن تبكي حبيبتي، غالبتني عبراتي، فما جئت أيتها الأغلى إلا لأحتويك بكل الحبّ، ماجئت إلا لأحيطك بكل الفرح، ما جئت إلا لأختلس من عبث الوجود لحظاتِ أنسٍ وسعادةٍ وسرورٍ، ماجئت إلا لأتكحل بصفاء عينيك الصغيرتين الكحيليتين الجميلتين وسماحة وجهك الوضّاء ودفق حبك القوي رغم ما أحدثته سنوات العمر العديدة من وهنٍ، ما جئت لأبكيك حبيبتي، جئت..

وخشيت أن يغالبني البكاء، قلت مواسياً ومداعباً:

يا أعز الناس أنت من قال لي ذات يوم إن رزق الرجل في قدميه. ومنذ ذالك اليوم فاطعتني بضحكة مبللة بالدموع قائلة:

- أنت أبرع من يخلط الجد بالهزل.. ليس على الأرض أحد أقرب مني إليك.. لكنني لا أفهمك!..

أسعدني كثيراً أن تضحك حبيبتي، فضحكتها التي تفجرت من الأعماق حباً وصدقاً وسعادة رفعت عن كاهلي أعباء قلقي وتوتري منذ أبكيتها في اللحظات الفائتة.

سألتها:

- هل تشكّين لحظة واحدة في حبي لك..؟

أجابت وكأن لم تكن تتوقع أن أباغتها بسؤال مباشر كهذا:

- لا.. لا.. أبداً.. هذا سؤال مرفوض.. السؤال في حد ذاته يدعو إلى الشك.

قلت:

- حسناً.. هذا الذي قلته يدعوني إلى الامتناع عن مواصلة السؤال.

قاطعتني فيما كانت تغرز عينيها الصغيرتين الكحيلتين الجميلتين في عيني:

- أجيبك لأني أدرك سؤالك اللاحق.. لكن ما جدوى الكلام..؟

ونزعت عيني من عينيها خشية أن أبكي، وبذلت جهداً عصيباً خارقاً كي أبدو كما لو أنني لم أنتبه.

أضافت:

- ابقَ هنا إلى جانبي.. لا تغادر.. لا ترحل..!

قلت:

- حسناً.. سيكون الرحيل الأخير.. سأعود إليك.

قاطعتني في عصيبة:

- لا تقل الرحيل الأخير.. هذا فألٌ سيء.

وأغمضت العينين الصغيرتين الكحيلتين الجميلتين وانصرفت كلية إلى تمتةٍ كانت على ما يبدو دعاءً لم أتبينه . ثم قالت بصوتٍ مسموعٍ بعد أن مسحت براحة يمناها صفحة وجهها:

- تمشي وتجيء طيب.

- اتفقنا على أن أغادر إذن.. ليس ككل مرةٍ.. سأعود عاجلاً.. لن أغيب طويلاً.. عديني أنت الأخرى أن لا ترحلي.

قالت:

- هذا أنت.. تخلط دائماً الجد بالهزل حتى إنك كثيراً ما تربكني إذ لا أتبين إن كنت جاداً أم أنك تهزل.

صمت كلانا برهة، أضافت:

- إلى أين يا حبيبي يمكن أن أرحل..؟ ! اكتفيت في حياتي بزيارة بيت الله وقبر رسول الله.. اطمئن.. لمْ أرحلْ.. لن أغادر " زنقة العويلة" سأبقى هنا في انتظارك.. حتى تعود فلا تتأخر.. عدني أن تفعل.. أعدك أن أبقى يقظة.. أتنصّت طرقاتك المميزة على باب البيت.. وقع قدميك في السقيفة.. كحتك المزمنة.. رائحة ثيابك المشبعة بالتبغ.. عافاك الله.

صدقني.. كلما تعود كل مرةٍ يخبرني قلبي أنك في طريقك إليّ قبل أن تصل الباب.. شيء في داخلي يهبّ فرحاً.. يدعوني إلى التنصت حتى إذا ما فعلت وجدتك تطرق الباب.. تعبر السقيفة.. تتقدم.. تنحني.. تحتضنني فأحتضنك.. تبعث في كياني الحياة.. يتدفق الجسد العجوز حيوية شباباً.. انهض بك إليك جذلة.. لا أدري ماذا يعتريني عندما تجيء. لكنك تمضي.. تغادر.. ترحل.. عدني ثانية أن تعود قريباً هذه المرة..

أعدك أن أنتظرك حتى تعود..

كانت كلماتها تتدفق قوية صادقة واثقة حميمة، أتلقاها عطشاً متلهفاً فرحاً سعيداً بالأمل الدافق في اليوم اللاحق،غافلاً في سهوٍ بشريّ ساذج عن عبث الزمن وخفايا الغد.

همست في العينين الصغيرتين الكحيلتين الجميلتين:

- تماماً.. كما يقولون.. لن أقول وداعاً بل أقول إلى اللقاء.

غالبت رغبة جاحمة في البكاء على غير ما كانت تفعل في لحظات الوداع في وقتٍ سابقٍ، إذ كانت تنهض مُقدمة على وداعي مبتهجة بالأمل في لقاء.. آت.

تساءلت:

- لن تخلّ بوعدك ؟

أجبت:

- سأعود.. وأنتِ ؟..

ابتسمت:

- أعدك.

ورحلت بعد أن تكحلت بما يكفي لرحلة واحدة حباً وبهجه وطمأنينة وسكينة وانتماء وحياة، مخدوعاً في اليوم اللاحق في سهو بشرىّ ظاهر عن حقيقة أبدية نلتف حولها في غفلة وعمي تماماً كما ثور الساقية، ذلك لأننى أُخبرت قبل أن ينفد زادى بوقت قصير أن أمي حبيبتي عجزت عن البر بوعدها فرحلت كي تغيب عن عينى إلى الأبد، فلم يعد هناك من يخبره قلبهُ أننى قادم إليه، ولا من يتنصّت طرقاتى المميزة على باب البيت أو وقع خطواتي في السقيفة أو يتوق إلى رائحة ثيابى المشبعة بالتبغ، لم تعد هناك عينان صغيرتان كحيلتان جميلتان أجد فيهما

كل ذاك الذى كنت أجده، خذلت " زنقة العويلة" أمى فعندما أريد لها أن ترحل لم تتشبث بها،تركتها ترحل، ورغم اننى لم أكن موجوداً حين رحلت أمّي إلا إننى أثق أنها رحلت في كبرياء فلقد كانت عفيفة تأبى أبداً أن تكون ضيفاً غير مرغوب على أحد حتى لو كان هذا الأحد هو الحياة.

قلت أخاطب نفسى إذ امتنعت بعد رحيل أمّي عن البوح:

- هكذا إذن.. بين رحيلٍ ورحيلٍ تكتمل فصول المهزلة.

وطفقت أجوب كل الطرقات، أسبح في كل البحار، أحلق في كل السموات، أرنو بعينين كسيرتين نحو الأفق الواسع بحثاً عن تلك التي كانت، عن كل ذاك كان، دون جدوى، فتطحن الغربة بضراوة منى الأعماق، تطبق على أنفاسي، تبعث بكل الاشواق، يحتويني الخواء في كل الأنحاء، ألوذ بالضوضاء، ألجأ إلى الأماكن، أتفرس الأشياء، تبهرني الأضواء، تختلط الرؤى، تتداخل الصورُ، أعاودُ الرحيل، لعلّ وعسى..!!

الفراشة

ربما كانت آخر أيام الربيع، قد يكون أيضا أول أيام الخريف. فتداخل فصول العام والذاكرة الواهنة لم يعودا قادرين على الجزم، لكن المؤكد هو أن الخريف كان وافداً وشمس ذاك اليوم كانت واهية، بينما كانت تهب بين الحين والآخر رياح باردة.

كنت أجرّ قدمي في تردٍ صوب غايةٍ مجهولةٍ، فساعات اليوم الطويلة وساعات الليل مؤرقة والقراءة صارت عادة ذميمة.فقصيدة البيت الواحد تتكرر بأساليب مختلفة وأحاديث كل يوم أمست معادة ومملة . والأفكار تراوح بين شدٍ وجذبٍ وكأنها أمواج بحرٍ بين مدٍ وجزر.

بدت على الرصيف الآخر كراسي مصفوفة إلى مناضد، ورغم أنها كانت خاوية فالساعة لم تتجاوز العاشرة صباحا والجلوس إلى المقاهي في ذلك الوقت المبكر عادة غير رائجة إلا أن الكراسي المصفوفة – على أية حالٍ – كانت تعلن عن وجود مكان يمكن أن أركن إليه.

خطوات في اتجاه الرصيف الموازي، وجدتني في مواجهة باب المقهى مباشرة، وبدا المقهى عبرَ الباب الزجاجي المتسخ كئيباً وحركة النادل

الذى كان يحمل فنجانى قهوة إلى عجوزين صامتين بطيئة. دفعت الباب وخطوات إلى داخل المقهى فتعثرت قدماي بكومٍ من أعواد الحطب كانت مهملة على ما رأيت أو ربما معدة كي يقذف بها إلى الموقد فتحترق وتتحول بعد برهةٍ إلى رماد.

استوقفتنى فكرة تحول أعواد الحطب المهملة إلى رماد وساءنى عدم اكتراث النادل فانحنيت ألتقطها عوداً عوداً وأكومها في زاوية المقهى حتى لا تؤدى إلى تعثر قادم آخر. وحين انتهيت منها انتبهت إلى فضول العيون التي كانت تحاصرني.

- السلام عليكم.

لم يرد أحد تحيتي. جلست إلى منضدة حيث كنت أقف بجوار كوم أعواد الحطب. جاءني النادل. كان قميئاً عابساً. وقف صامتاً. دفعت إلى عبوسه بابتسامة. ظل واقفاً صامتاً عابساً. اعتدلت على الكرسى الخشبي:

- فنجان قهوة بدون سكر.

استدار ومضى قبل أن أكمل:

- كوب ماء.. كوب ماء لو سمحت !

كان يجلس إلى المناضد الخشبية المتهالكة عدد من الرجال كبار السن متشحون بمواصفات المتقاعدين بعد سنين مضنية من العراك مع الحياة الوظيفية بعيون منطفئة وأجساد مترهلة وأخرى نحيفة جافة. الوجوه في الغالب كالحة مبذورة بشعيرات بيضاء في مواقع مختلفة. تلتقى

كثرة تجاعيدها وتنوع تعرجاتها والثياب الرثة والشهد في مجمله لم يكن يدعو إلى البهجة. ففكرت أن أنصرف لكننى خشيت أن يقدم النادل بفنجان القهوة. وربما كوب الماء فلا يبدو لائقاً أن أنصرف عنه.

قال أحدهم يحدث عجوزاً آخر بصوت خافت في حديث بدا أنه كان استطراداً:

- منذ عامٍ.. منذ عام لم يتصل.. نسي على ما يبدو أنني أبوه.

طفح وجه العجوز المنصت شبه ابتسامة. وربما حاول أن يخفف بها من مرارة عقوق ابن رفيقه. لكنه تأوه في حسرة. قال:

- دعه وشأنه.. إننى منذ توفيت أم الأولاد انصرفت الى شأنى.. لم أعُدْ أعير اهتماماً لأحد.

من شاء أن يجيء فليجيء ومن شاء أن يختفي فليختف.. للكعبة رب يحميها.. هه..

رغم أن حديث العجوزين كان خافتاً إلا أنهُ على ما يبدو كان مسموعاً أو ربما مُعادا مكرراً متوقعاً من رفاق المقهى. ذلك لأنّ عجوزاً يجلس إلى منضدة أخرى قال موجها حديثه للعجوزين بصوت حاول قدر جهده أن يغلفه بالمرح:

- الأولاد صغار كما الكتاكيت. نأويهم في العش. نطعمهم. نحميهم. نقيهم قيظ الصيف وصقيع الشتاء حتى إذا مانبت الريش واشتدت الأجنحة في كل الاتجاهات وبقيت أنت في العش وحيداً.. هه.. هاها..

ظل الصمت قابضاً على المكان وظلت الوجوه عابسة والعيون نصف مفتوحة يراودها النعاس أو ربما هي تسبر أعماق الماضي القصي، حين كان الجسد في عنفوانه والعقل في توهجه يقود الحياة في اتجاه الغد الأروع، وضجيج الأولاد يطارد الهدوء ويصنع المرح والفرح والسعادة، لكن صوت ارتطام فنجان القهوة بسطح المنضدة وتبدد جزء من كوب الماء على ملابسي شرخ الصمت، وبدا الأمر طبيعياً حتى إنه لم يدع النادل إلى الاكتراث فالاعتذار، وكأن ما حدث أمر معتاد لا يستوجب أي رد فعل، فأغاظني، رفعت عيني إلى عينيه أؤنبهما، لكنني وجدته شاخصاً بهما إلى أعواد الحطب.

المشهد استبدل غيظي بدهشةٍ عارمةٍ، إذ بدت فراشة زاهية الألوان تحوم حول أعواد الحطب المكومة على غير بُعد مني وهو أمر غير طبيعي، ولا معتاد ذلك لأن زمن الفراش هو الربيع ومواطنه هي الزهور اليانعة في الحدائق النضرة، أما وقوعه على هذا النحو فهو بالتأكيد ضد ناموس الطبيعة وقواعد الكون وتوافق الأشياء، لكن الفراشة الرائعة كانت تحلق وتحط على أعواد الحطب في حركة منتظمة شبه راقصة حتى إن نغماً هادئاً بدا منسجماً وإيقاع حركات الفراشة تناهى إلى أسماع الرجال فانتبهوا للمشهد واتسعت حدقات عيونهم معبأة بالدهشة والانبهار.

غمرت المكان نسمات عطرة واحتواني ما يشبه الخدر اللذيذ حين بدت هي بوجه طفولي ملائكي وعينين سوداوين مخفورين بحاجبين

مرسومين بريشة فنان أعظم تشعان بهجة وفرحاً وحياة، وثغر لا يتعدى حجم حبة كرز حتى إذا ما انفرج عن ابتسامة بدت حبات البرد بيضاء صغيرة متناسقة كما اللؤلؤ على جيد مرمري مسيجاً بقبلة متناغماً، وقوام رشيق مرن مكسو بثوب حريرى شفاف فضفاض لا يعوق إيقاعات الرقص المتنامية وإن كشف بين حين وآخر عن ساقين بلوريين.

كانت الفراشة تحط بخفةٍ على عود حطب ثم عود وعود آخر، وتعود لتحلق على غير بعد من أعواد الحطب فتلامس هذا العود بأحدِ جناحيها ثم تنحرف لتلامس عوداً آخر بالجناح الثاني فلا تلبث حتى تحط فتستقر على عود لبرهة ثم تعاود التحليق المنتظم حول أعواد الحطب في حركة دؤوبةٍ بدت تماماً كما الرقص توافقاً والأنغام الهادئة الشجية.

فركت عيني عدة مرات، ذلك لأن أعود الحطب ذات اللون الرمادى صارت تميل إلى اللون الأصفر المشوب بلون رمادى يكاد يندثر، خشيت أن تكون أشعة الشمس التي اشتدت قد كست أعواد الحطب بأشعتها الذهبية فهيئت لعيني الكليلتين وخيالي الجامح رؤية غير حقيقة لا تتعدى نطاق خداع البصر، لكن اللون الرمادى ما لبث حتى اندثر نهائياً ،وصار لون أعواد الحطب أصفر يكاد يخضوضر على نحو واضح حائلا بقوةٍ دون احتمالات الخداع والزيف.

بدا انصرافي صوب أعواد الحطب انتزاعاً لوجودى من المكان، ذلك لأننى لم أنتبه إلى ما كان يجرى في عين المكان، فالموسيقا لم تعد هادئة سلسة إذ تعالت في إيقاعات صاخبة راقصة، وهي بكل فتنة

الأنثى وبراءة البكر تتهادى بين الرجال الذينَ أضاءت وجوههم الكالحة ابتسامات شرهة تعوقها دواعي الوقار لكن حفيف الثوب الحريرى الذى كان يلامس يد هذا وقدم ذاك. وما يصاحبه من نفاذ نسمات عطرة أتى على كل دواعي الوقار، فنسي ذاك العجوز تماماً شأن ابنه العاق وخلع عنه معطفه ووقف مقاوماً انحناء ظهره. وشرع يصفق بقوة ضاحكاً متناغماً وإيقاع الموسيقا وخطواتها نحوه في مداعبة رقيقة مبهجة.

لم تعد الوجوه كالحة . بينما اختفت التجاعيد مغمورة بالفرح والمرح والانبهار، حتى النادل الذي كان يقف شاخصاً مبهوراً غادرت وجهه العابس كآبة ذاك الحين فتلألأت عيناه بالفرح. وأضحى يتمايل في محاولة جادة للرقص يحول دون نجاحها ثقل وزنه ووهن ساقيه.

كان المشهد بهياً، وكانت بكل ذكاء الأنثى ودفق البكر تغمر رجلاً بعينه بدفقة حب حتى يخالها اصطفته دون غيره من الرجال فيلامس طرف ثوبها خلسةً لتمنحه هي ابتسامة، وتنصرف إلى آخر فتعاود ذات الأمر ثانية حتى تحلق كل الرجال حولها ليخترق النادل الحصار إلى وسط الحلقة يراقصها بإيقاع غير متناسقٍ وإيقاعاتِ الأكف المتوحدة التصفيق بقوة تضاهي عنفوان الشباب.

فوجئت بأعواد الحطب ، وقد انتصبت مخضرة وتفرّعت عنها أغصان صغيرة نامية تكاد تنثر وروداً وأزهاراً ورياحين عطرة بألوان زاهية كألوان الفراشة الدؤوبة المثابرة. تلك المخلوقة الرائعة المباركة التي جاءت في زمن غير الزمن وإلى مكان غير المكان لتؤكد على أن مشيئة الطبيعة

قادرة على صنع الحياة في كل الظروف وأن اليابس يمكن أن ينبت أعواد الحطب متى غمرت بدفق الحب والفرح والمرح.

كان ضجيج الرجال يعلو والموسيقا تصخب والرقص يشتد. وهي. ذات الوجه الطفولي الملائكي والعينين السوداوين المحفورين بحاجبي مرسومين بريشة فنان أعظم وثغر لا يتعدى حجم حبة الكرز تغمر الرجال بالحبّ والرقص والمرح ، فبدا المشهد من وراء ألواح الزجاج للمارة ملفتاً وكأنما حفلٌ شبابيٌّ صاخبٌ راقصٌ يقام في غير المكان وغير الزمان. لكن أحداً لم يلتفت إلى كهولة الراقصين إذ بدوا في خفة وحيوية وعنفوان الشباب وفرحٍ ومرحٍ وسعادةِ ربيع العمرِ. إلا أن الرجال انتبهوا على التوالي إلى فضول عيون المارة الذى اخترق ألواح الزجاج إلى المكان فاستوجب الأمر الوقار وعادوا تباعاً إلى مقاعدهم يتدفقون حيوية وفرحاً وبهجة وإقداماً.

غصون أعواد الحطب أنبتت ورودا وأزهاراً ورياحين وغمر المكان طيب نافذ ينبعث منها في كل الأرجاء. وبدت الأعواد سيقان أشجار تسمق تحت أشعة الشمس في اتجاه لحياة. لكن الفراشة زاهية الألوان كانت قد اختفت تماماً . كما فعلت هي إذ حلقت في أجواء المكان تلاحقها عيون الرجال متوهجة سعادة وإطراء وعرفاناً ثم تلاشت فاختفت.

غادرتُ المكان أعبر الطريق إلى الرصيف الآخر منتصب القامة أدق الأرض بقدمين قويين. وقد اعترتنى حيوية ونشوة دافقتان مقبلاً على غدي بفرح وانشراح وابتهاج . بينما كانت أشعة الشمس ساطعة

زاهية والنسمات هادئة عطرة تغرق الوجدان بكل مشاعرالحب والتفاؤل والأمل. فتأكد لي أن اليوم ربيعي وأن الخريفَ لا يمكن أن يقدم أبداً.

هكذا على ما أجزم كان شأن كل الرجال. وهكذا على ما أذكر رفعت عيني إلى عنان السماء متضرعاً أن تصطفى تلك الفراشة الرائعة المباركة حور عين. وأن يصبح المكان مزاراً يؤمه الناس عرفاناً بالإعجاز.

زيارة ولد الشيخ

ولد الشيخ كان رجلاً ضخم الجثة، جاحظ العينين، قاسي الملامح، بطيء الحركة، رثّ الثياب، لا يتكلم إلا نادراً فإن فعل فلا ينطق بأكثر من كلمة أو كلمتين، لكنهُ يمتلك قدرة غير طبيعية على الإنصات المصحوب بابتسامة غير مغمورة بالفرح، فلا يظهر أكثر من أسنانهِ التي لا تلبث أن تختفي عندما يزم شفتيه فجأة، ويُحدث بعينيه حركة عصبية تدعو إلى قلق الكبار ورعبِ الصغار.

- من هو ولد الشيخ ؟! من أين جاء ولد الشيخ ؟! أين يقيم ولد الشيخ ؟!

لم يكن يعنينا نحن الصغار في تلك السنوات القصية الأمر كثيراً، أما كبار « سيدى حسين « الذين توافدو على الحي في أعقاب الحرب العالمية الثانية من جميع أنحاء البلاد، فلم يكونوا ليأبهوا، ربما حرصاً على أمور إنْ بدت قد تسوءهم ، فلكل وافد على « سيدى حسين « قصة لا يجوز الخوض في غمارها أو الحديث في تفاصيلها أو الغوص غير المستحب في دقائقها، إذن، لا ملاذ للوافدين على «سيدى حسين « سوى

الصمت والحذر، منعاً للضرر، ومقاومة سلبية عفوية لواقع الحال. لكن الفضول قد يطبق عليك في قسوةٍ، فتلح على عقلك رغبة شرسة في المعرفة، حينها قد يصدّك الكبار، إلا أنهم قد يخبرونك بصوت هامس مشوب بحذر شديد:

- لا أحد يعرف اسم ولد الشيخ !!

فولد الشيخ لا يحمل إثبات هوية ولم يحدث أن أعلن عن اسمه، إن أنت ناديته محمداً أجاب، وإن أنت ناديته بغير هذا من الأسماء، أجاب أيضاً، أما إذا أصررت على معرفة اسمه، انفرجت شفتاه عن حركة تبدو كما الابتسامة، وأحدثت عيناه حركة عصبية تدعو إلى القلق عادة، والرعب أحياناً، لكنه أبداً لا يجيب.

يقولو إن في هذا الرجل شيء لله، الأمر الذى يعنى أنه أحد أولياء الله الصالحين، المغمورين الذين إن كشف سرهم ماتو فوراً، واختفوا من على الأرض إلى باطنها، لكن هذا القول على ما علمت بعد ذلك جاوبه بغضب شديد من إمام مسجد " سيدى حسين ":

- لم يحدث أن رأيت ولد الشيخ في الجامع، ولد الشيخ لا يصلي، ولا يؤدى فرض الله، أراهن على أنه لم يحدث أن اغتسل منذ ولدته أمّهُ.. هه، اسأله عن قواعد الإسلام الخمس الواجبات.. اطلب إليه أن يسمعك سورة واحدة من القرآن الكرم.. درويش..مخبول.. أبله.. ربما... أما ولي فلا..!!

رغم أنه إمام لمسجد بدا وكأنه يخشى على موقعه كإمام من رجل

على علاقة أوطد بالله إلا أن مداخلته لقت قبولاً لدى الحضور باستثناء أحدهم:

- لم يحدث أن ضبط ولد الشيخ مخموراً أو زانياً أو سارقاً أو غير ذلك..

ضحك إمام المسجد في سخرية بينة ثم قال:

- هذا ما ينقص ولد الشيخ فعلاً !!

استقرار الرأي في « سيدى حسين « على أن ولد الشيخ ليس أحد أولياء الله الصالحين. ثم ثار جدل واسع على مدى ليالٍ عديدةٍ حول تصنيف ولد الشيخ ما بين درويش. مخبول.. أبله. وفي جميع الأحوال لم يكن النصر حليف فريق ضد فريق. فتم الاتفاق في النهاية بنسبة ضئيلة على تسمية الرجل بولد الشيخ. فإن لم يكن هو الولي الصالح المغمور فلا أقل من أن يكون ابن أو حفيد صالح.

كان من طباع ولد الشيخ أن يختفي عدة أيام ثم يعود للظهور فجاة. وعندما سُلّط كبار «سيدى حسين» صغاره على الرجل. فلاحقوه ذات عشية بغية معرفة مكان إقامته. ظلّ يجوب شوارع المدينة عدة ساعات. حتى هلك الصغار وعادوا خائبين فيما اختفى ولد الشيخ تلك المرة شهراً كاملاً.

عندما عاد بعد ذلك ذات يوم يجر قدميه المسبوقين بمكنسته العتيدة. برقت عيني مختار «سيدى حسين» بفكرة لم تكن واردة على الإطلاق:

- سأعرف من هو ولد الشيخ ؟!

- كيف ؟!

- أتوجه إلى البلدية، وأبحث في كل الأوراق إلى أن أعرف كل شيء عنه... لن أغيب طويلاً.. انتظروني.

عندما عاد مختار "سيدى حسين" في اليوم التالى، بعد أن غاب طويلاً، بدا مهزوماً، فلم ينطق بكلمة واحدة، وعندما سُئل بعد انتظار عن ولد لشيخ.. أجاب:

- لا توجد ورقة واحدة تخص ولد الشيخ في البلدية.. الرجل يتقاضى أجراً يومياً غروب كل يوم. الحرس البلدى لا يعرف أكثر من أنه ولد الشيخ.

بعدما اتصلت أحياء بنغازى، وكبرت المدينة، وعبدت الطرق، وشيدت البيوت الحديثة، وارتفعت العمارات شاهقة، وازدهرت الحياة، انتبهت قلة إلى غياب ولد الشيخ، لكن الأمر قوبل بعدم اكتراث، ثم بسخرية بالغة، وذات حين بحدس يرقي إلى مستوى الحقيقة:

- ولد الشيخ مات !

طيف ولد الشيخ لاحقنى كثيراً في أوقات متقاربة، ثم متباعدة، فقدر الرجل الغامض كان الصمت والترحال، عاشه وحيداً، فقيراً، كادحاً، لا يعبأ، ولعله قضى نحبه بعد كل سنى عمره دون أن يترك أثراً من ولد أو عقار أو صدقة جارية إلى يوم الدين.

عادنى طيفه ذات يوم، بعد سنوات عندما صحوت فجراً، كنت حينها أحدق في سقف الغرفة حيث أنام، أتفحص الموجودات بعينين

دامعتين، ذلك لأنني لم أتعرف على موقعي في هذا العالم من كثرة الترحال، أستطيع أن أتذكر في أية مدينةٍ أنا موجود !! أغرفة في أحد الفنادق هذه أم ضيف على صديق خارج الحدود ؟! في مجمل الأحوال وحيد أنا، خارج داري تطحن الغربة والوحشة والترحال ذاتي.

عزّ على نفسي ما انتهيت إليه داهمتني رغبة جامحة في البكاء، فبكيتُ من أجلي، ومن أجل ولد الشيخ الذي مات دون أن يعني أحد بمعاناته القاتلة.

حاولت أن اغفو مرهقاً مهزوماً بعد ذلك، لكن طيف ولد الشيخ تجسدّ قائماً بجوار مرقدي، خطا نحوي، مصوباً في اتجاهي تلك الإبتسامة غير المغمورة بالفرح . محدثاً بعينيه تلك الحركة العصبية المؤدية إلى القلق، ثم ما لبث أن توجه إلى حذائي يفرغ ما احتواه من أتربة الطرق الوعرة في كفيه الضخمتين، ويصوّبه أرضاً في اتجاه باب الغرفة المُوصد يختفي.

نهضتُ مفزوعاً، وبعدما خلعت الدقائق البطيئة اللاحقة عن فزعي، خللوت إلى ذاتي، وقد طهرتها الدموع فجراً، فانتهيت إلى أن ولد الشيخ جاء يخبرني أن الترحال قدر، كما الوحدة، لا يجدي معها إلا الصمت.

انتعلت حذائي، حملت حقيبة أسفاري ، فتحت باب الغرفة، رحلت وحيداً صامتاً.

الزيتونة

هدير الوحش الحديدى يمزق صمت الصباح الرطب. الفزع يجتاح مزرعة الحاج مبروك فتخور الأبقار. تثغو الشياه. يصهل الجواد. ينبح الكلب الهرم. تقرقر الدجاجات. تطير الحمامات جماعة في اتجاه الأفق. تتساقط قطرات الندى من على غصون وريقات الأشجار يُغمض الحاج مبروك عينيه. يتمتم في أسىً.

- ليتنى متّ قبل أن يحدث هذا..

تطيّب خاطره رغم نزف الألم. تلك الصبورة الودودة التي رافقته على مدى ثلاثين عاماً

تقول:

- اصبر يا شائب.. الله غالب.

تمد يدها إليه بكوب الشاى. يصوّب نحو يدها نظرة رافضة. ترتدّ يدها بالكوب. تضعه فى الصينية. تأوه. نهض اجتاز الحوش إلى الباب. تخطى العتبة. وقف في وسط المزرعة. اشتد هدير الوحش الحديدي. بدا ضخماً يشق الغبار صوب جانب من السور الترابى العريض. يدكه. يكّومه.

ينفتح عن مجرفة كبيرة تغرف كوم التراب. ترتفع. تستدير تفرغ التراب في صندوق شاحنه قريبة، تختبئ المجرفة الكبيرة في جوف الوحش الحديدي، يتقدم الوحش الحديدي ثانية، يدكّ جانياً آخر من السور الترابي،و يكومه، دون أن يعبأ بجوقة طيور وحيوانات المزرعة، دون أن يكترث لأسى الحاج مبروك، يهدم ويهدم ويهدم، بينما يتراجع الحاج مبروك خطواتٍ إلى حوش البيت، منهكاً كما لو كان الوحش يدكّ عظامه.

يطحن سنوات الأمان والطمأنينة، يشوّه معالم سني الطفولة والصبا والرجولة والكهولة أيضا، تتلاحق الصور البهية الفاتنة في ذهنه مستغيثة.

- مبروك كبر.. تجاوز السور طولاً.. انظري.

- قل ما شاء الله.. قل.. ما شاء الله.

هكذا تحاور أبواه في صباه ضحى ذات يوم . فيما كان يحتسيان شاي الضُحى تحت ظل الزيتونة بجوار السور، السور.. السور.. فوق السور الترابي، في ضوء القمر، قضى معظم ليالي الصبا والشباب رفقة رفاق تلك الأيام القصية، يتسامرون، يحتسون الشاي، وربما تيسرّ لهم تدخين لفافة تبغ في غفلة من الكبار، عبر السور أيضاً التقت عيناه عيني تلك الصبية الحلوة التي صارت رفيقة العمر فيما بعد، ومن خلال السور كم كانت اللقاءات بها بهيجة حميمة، وكم كانت الوشوشات دافئة بهية.

صورة كريهة اكتسحت كل تلك الصور الرائعة في ذهن الحاج مبروك، تجلت مزعجة مقيتة:

- هذا قرار...

- أرفض...

- الطريق الجديد ضرورة...

- أرفض...

- ترفض...؟... ترفض...؟...

- نعم أرفض...

- أحذرك... لا ترفض...

- أرفض أن يهدم السور...

- ترفض القرار...

- أرفض أن تؤخذ أرضي... أن يقتطع شريط من أرض المزرعة...

- تتعرض للعقوبة...

- أرفض أن تقتلع الزيتونة...

- سيعوضونك...

- أرفض.

- ابصم هنا...

- لن أفعل...!

أطبق جفنيه على الدموع التي نضحت بها جفناه. فالألم أكبر من أن تتقّيه شيخوخته بالصبر، والكارثة أشد من أن تجابه بجلد الرجال، والأقسى أن يقابل كل الناس محنته ببرود وكأن الذي يحدث لا يستحق

أكثر من مط الشفاه، الحوقلة، اصطلاح " المصلحة العامة " وكفى، حتى ولده ذاك الذى ولد وترعرع فى المزرعة، لعب تحت الزيتونة، جرى فوق السور صار منهم، يرتدى لباس النصارى، يقيم فى المدينة، يقتات المعلبات، يحاول كأنه طرف آخر أن يقنعه:

- الطريق الجديد.. لا بد أن يخترق المزرعة..

- خرّف.

- لا بد من وصل شرق المدينة بغربها.

- خرّف.

- مهندسون.. مسّاحون.. دراسو المنطقة.. قدموا تقرير اللجنة.. اللجنة قررت..

يقاطعه غضباً:

- أسكت.. أسكت.

الحصار يشتد وما تقرر لابد أن ينفّذ، والدنيا تضيق فى عينى الحاج مبروك حتى يخالها فى سعة خُرم إبرة، ورفضه يكاد يخبو فى صقيع اللامبالاة من الآخرين، تتأكد لديه حاجة شيخوخته إلى المهادنة.

- أقول لك.. أقول لك يا ولدي.. أمرى لله.. فليهدموا السور.. لكن شريطة ألا يقتلعوا الزيتونة.

- سيسخرون منا.. الزيتونة تقع فى منتصف الطريق مباشرة.

- الزيتونة تقع فى المزرعة.. الطريق الجديد هو الذى اخترق المزرعة إلى الزيتونة..

- على كل حال.. أخطرنا رسمياً بالقرار وما علينا إلا أن نرضخ للأمر الواقع..

- لكننى أرفض.

- لا يهم.

استفزه. صرخ فى وجهه:

- اخرج.. لا أريد أن أراك بعد الآن.

الوحش الحديدى يقترب من أحد جوانب السور الترابي المحاذي للبيت و يشتد الهدير. يندفع الحاج مبروك إلى وسط المزرعة. الوحش الحديدي يدكّ جانب السور الترابي بقوة.

يصيّرهُ رماداً. ينفتح عن الجرفة الكبيرة. تغترف الكوم الترابي المسحوق. تفرغه في صندوق الشاحنة. يطوف الحاج مبروك بعينين دامعتين على امتداد موقع السور. لا عشب. لا خضرة. شريط من الأرض الترابية المبقورة تبدو كثعبان صحراوى كريه. الزيتونة ستُقتلع والطريق الجديد سيخترق المزرعة. ويمتد شريط أسود عريض عبر الحقول الخضراء. وكأنه السرطان يسري موتاً فى خلايا الحياة. وتغرب عن الحقول كل سني الخير والنماء إذا ما توالى زحف الطوب والقطران على هذا النحو المقيت.

هدر الوحش الحديدى هديراً شديداً. استدار. مضى وسط الحقول تتبعه الشاحنة إلى الطريق الرئيس. عاد الحاج مبروك إلى حجرتهِ خائر القوى. استلقى على النطع. سحب الوسادة من تحت رأسه. وضعها على وجههِ. استسلم مرهقاً لإغفاءة. لكنه ما لبث حتى نهض مفزوعاً.

فاحتوته رفيقة العمر فى عينيها الكسيرتين:

- بمنشار آلى... ينشرون ساق الزيتونة..

ويحتدّ صوت المنشار حيناً ويخفت حيناً آخر، توافقا مع شدة مقاومة الزيتونة من أجل الحياة. لكن المقاومة تشتد وتشتد. وصوت المنشار الآلي يحتد. يقتحم عليه أحزانه فيفجرها غضباً دافقاً تصيّره اللحظة إرادة عارمة من أجل الحياة. النماء والعطاء. فينطلق الحاج مبروك صوب الزيتونة فى وسط المزرعة. تصدّه صرخات العمال المدويّة:

- ابتعد. ابتعد..

أمام عينيه تتداخل الرؤى. تتجمد فى عروقه الدماء. تنغرز قدماه فى تراب الأرض.

تتهاوى الزيتونة الضخمة قتيلةً. تقتلعه رياح التهاوي من مكانه تطيح به أرضاً. تراب الأرض يغمر عينيه وفمه. كل وجهه. ورقات الزيتونة بدت كما غار يتوّج هامته. ضجيج هائل يتداخل. الضجيج يتباعد و يتباعد. والرجل يغيب. يغيب بعيداً.

- مات.. مات..

مفجوعة صرخ رفيقة العمر.

- فقد وعيه..

أجاب أحد الرجال. وأفاق الحاج مبروك وقد تحلّق حوله نفر من جيرانه المزارعين يمسح أحدهم جبينه بخرقةٍ مبللة بالماء البارد. ثان يتلو سورة

من القرآن. ثالث يحتضنه فى ودّ. ورفيقة العمر تحتويه فى عينيها الكسيرتين. والجرح ينزف فى داخلة ألماً مأساوياً.

همس. فبدا الصوت حشرجة مفجعة:

- قطعوا الزيتونة.. الزيتونة اغتيلت..

قال أحدهم:

- لا يأس من رحمة الله..

قال ثان:

- تحل بأخلاق المؤمن..

قال ثالث:

- تذرع بالصبر..

قال رابع:

- إن الله يختبر إيمانك..

قوة خارقة تفجرت فى كيانه. صرخ فيهم:

- كفى... كفى..!

صمتوا جميعاً. نهض واقفاً وفى عينيه بريق. حاولوا أن يقعدوه. تخلص منهم بقوة. انطلق إلى الزيتونة الممدة على التراب قتيلة. قبّل بشفتين عاشقتين وريقاتها وغصونها. ساقها. أيدي الرجال تشده إلى الخلف ويستقيم واقفاً يهمس أحد الرجال لآخر:

- جنّ الرجل. لا حول ولا قوة إلا بالله.

يتفحص الحاج مبروك عيون الرجال. يشتد ذاك البريق فى عينيه. يقول:

- انصتوا.. من أجلى فعلاً.. من تألم لأجلى حقيقة.. فليساعدنى.

تداخلت أصواتهم. جيبه فى هدير أضاء ملامح وجهه بالأمل:

- من أجلك سنفعل ما تريد.

قال:

- فليحضر كل منكم ما عنده.. معول.. رفش.. أيّ شيء.. الزيتونة لن تموت.

وقت لفح يوم صار قائظاً من أيام مارس تناوب الرجال العمل. فريق يحفر الأرض مهيئاً الموقع الجديد للزيتونة. فريق ينبش الأرض بدقة خبيرة حتى لا تتأذى جذور الزيتونة أو يعوق استخلاص القرمة من الأرض عائق. والأزناد السمراء القوية تنضح عرقاً. تتدفق جهداً وحيوية. بيدين هرمتين يسهم الحاج مبروك مع الرجال فى صنع الحياة حيناً. يتابع بعينين جذلتين معجزة بعث الحياة فى الزيتونة القتيلة حيناً آخر. ورفيقة العمر تناول الرجال بين الحين والحين أكواب الشاي فيحتسونها فى سعادة.

استخلصت القرمة بمهارة من الأرض. حملت محوطة بالحب إلى الموقع الجديد.

غُرست دون أن يتأذى منها جذر. غُطيت بالتراب فى رفقٍ. سُقيت.

تصافحت العيون فى مودة، اغروقت عيني الحاج مبروك بالدموع فيما تراءت له الزيتونة تضرب بجذورها فى أعماق الأرض، تمتد بفروعها الخضراء إلى آفاق بعيدة.. فتعطي وتعطى وتغرق فى العطاء فيما تتنفس المزرعة السكينة و الأمان، فتعود حمامات المزرعة والدجاجات إلى نبش الأرض فى طمأنينة بحثاً عن الغذاء، وتتشاغل الشياه والأبقار بالرعي والاجترار، ويربض الكلب فى المزرعة حارساً لا تخور له قوى، ويدقّ الجواد الأرض جذلاً مزهواً بالحاج مبروك الذى استحق فعلاً أن يكون فارسه..!

الجرذ

القرية كانت وادعة، الحياة رتيبة نمطية تبدأ بعد شروق شمس اليوم، موظفون صغار ينوءون بالتثاؤب ثقلى يجرون الخُطا صوب مكاتبهم، صغار التجار بعيون ذكية متلصصة تبحث عن صفقة، تلاميذ بحقائب مدرسية يتقافزون متفائلين فى سباق مع دقات جرس المدرسة وخيبة العلم.

الشارع الكبير المترب يشق القرية إلى نصفين وتصطف على جانبيه محال تجارية متواضعة وبيوت سكنية غير متجانسة، بينما يبدو مقهى القرية معلماً فى طور النمو يلجأ إليه مواطنو القرية للعب الورق متحلقين على الكراسى الخشبية العتيقة حول طاولة أو أكثر وفي الليالى القمرية للسهر واحتساء الشاي والحديث فى كل شيء بهيج ذي علاقة بالصبايا وربما شؤون القرية..

يحدث أحياناً أن يضج الشارع الكبير المترب بالمرح عندما يتصايح التلاميذ عائدين من المدرسة، متبادلين فى براءة المزاح متقاذفين كرة قماشية، لكن الشارع يميل عموماً شأن القرية دائماً إلى السكون

والدعة. بل إن الصمت المطبق قد يجثم على القرية تماماً فى أيام الصيف الملتهبة شديدة الحرارة إذ يختفى مواطنو القرية فى بيوتهم ودكاكينهم فمياه البئر الوحيدة فى القرية شحيحة. ولا يجوز أن تستنزف فى ترطيب الشارع المترب أو المبالغة فى الاغتسال وغير ذلك.

«فقى» القرية كان قد تحدث إليهم مراراً:

- الماء هو الحياة.. حرصكم على الماء يعنى حرصكم على حياتكم.

- هذه من غير فقى!!

هكذا كان تعليق مواطني القرية على قول "الفقى" فى غيابه فهم لا يجرأون على القول فى وجوده ذلك لأن الرجل يحظى منهم بكل التقدير والإكبار والحاجة إلى تقنين استهلاك الماء قرار جماعى. ولا يضيف إليه قول الفقى أكثر من البركة شيئاً.

يحدث أحياناً أن يخرق نفرٌ من مواطني القرية القرار فيغترف من البئر قليلاً من الماء يرش به الشارع الكبير المترب في الأيام القائظة ترطيباً للأجواء وتسكيناً للغبار وترويحاً عن أولئك الذين يلجأون إلى مقهى القرية مع غروب الشمس بعد يوم حار طويل. فيطال رذاذ الماء "صابر» تذروه الرياح نادراً ويذري عمداً غالباً من مازح شاء أن يوقظ «صابر» النائم على الرصيف متوسداً ذراعه مستغرقاً عالمه لوحده.

يُعرف «صابر» فى القرية بأنه مواطن أصيل أباً عن جد. ذلك لأن أسرته عريقة توارثت الحياة فى القرية على مدى سنوات وتنعمت بمردود عقارات وتجارة واسعة وكان من أفراد أسرته وجهاء أعيان. لكن الزمن أتى على

كل شيء إلا "صابر" الذى يمتاز بقوة عضلية تجعله موضع اعتبار من لا يعتبر أصالة الرجل أو يحاول أن يستخف به. أيضاً قوة "صابر" العضلية مكنته من العمل عتالاً يلجأ اليه أصحاب الدكاكين مقابل أجر بسيط ينفقه فى يومه دون اكتراث برزق اليوم التالي.

عيب "صابر" أن الله حباه بنعمة " الصمم". فالرجل أصم لا يسمع الأمر الذى عرّضه لكثير من الحوادث التي كادت أن تفقده حياته فلا يأبه. حتى اعتقد مواطنو القرية أن الحياة والموت عند "صابر» سيان. ولعل هذا ما حدث تحديداً عندما انطلق البرّاح ذلك اليوم في الشارع الكبير المترب معلناً فى صوت متهدج عن الغول الذى اغتصب البئر محذراً كل مواطني القرية من الخطر الساكن فى عمق الماء.

- لا تقتربوا من البئر!!

ساد الهرج الشارع الكبير المترب. رجال ونساء وأطفال. عيون سكنها الذعر شفاهٌ تيبست. وجوهٌ كلحت. سيقان خارت. الحزن أطبق على كل مواطني القرية. فالخوف من الغول يرهب أشجع الفتيان. ويحول دونهم والبئر نبع الحياة فى القرية الوادعة.

رغم أن اليوم كان فائظاً إلا أن " صابر " كان مستغرقاً في نومٍ عميقٍ على الرصيف متوسداً ذراعه غائباً تماما عن كل شيء ؛ نداء البراح. ضجيج الرجال والنساء والأطفال. التحذيرات المتصاعدة بالابتعاد عن البئر. لذا. فهو لم يرهبه الخوف ولم يعتر وجدانه الحزن. فشيء مما يقال همساً وجهراً لم يسمعه.

قال أحدهم:

- رأيت الحبل من البئر يعلو ويهبط !!

- قال آخر:

- رأيت الدلو جافا يخرج من عمق البئر دون ورد !!

- أضاف مذعوراً:

- بل رأيت أن يداً سوداء طويلة قبيحة تسحب الدلو بشدة إلى داخل البئر !

- قال البراح:

- أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.. إنني أخشى أن يكون الغول قد دق عنق غافل جاء يرد البئر عطشاً ليرتوى !!

- صدح صوت جهوري تعوّد مواطنو القرية سماعه:

- السلام عليكم.

- رد مواطنو القرية:

- وعليك السلام ورحمة الله وبركاته !

كان " الفقى " قد حضر فانتعش الأمل، وتراجع الخوف وتبدد الحزن وتعلقت العيون بـ «الفقى» تنصت وقد ساد الصمت المكان.

قال " الفقى " بصوت عال:

- لا تخافوا... يحدث أحياناً أن يسكن غول بئراً أو يسكن نفر من الجن بيتاً.. الشياطين أيضاً تفعل ذات الشيء.

حوقل مواطنو القرية وبسلموا واستعاذوا بالله من شر الشيطان الرجيم، بدا أن الأمل قد تقهقر، لاح الخوف في العيون، قد يطبق الحزن مجدداً على مواطني القرية، فالخوف يغتال الأمل وينبت الحزن.

استطرد " الفقى " بصوت قوى:

- الأمر لا يخيف.. إن الله لطيفٌ بعباده..

صرخ أحد الفتيان:

- كفانا مواعظ.. ما العمل ؟!

استهجن مواطنو القرية اعتراض الفتى حديث «الفقى»، رغم ما لقيه من استحسان غير معلن فاقتاده أقرانه بعيدا عن الفقى الذى أضاف غاضبا:

- إن المعمول لوجه الله.. منذ سمعت بأمر الغول اعتكفت وتمكنت بعد أن قرأت وقرأت وقرأت من إعداد هذا الحجاب !!

أخرج «الفقى» ورقة مطوية بدا على البائن منها رسوم وحروف زعفرانية صفراء شخصت إليها كل العيون، فلوّح بها مغمضاً عينيه ليكتسح الخوف حتى الفتيان.

قال " الفقى ":

- هذا الحجاب سيحرق الغول، فليأخذه أحدكم ويرمى به في قعر البئر.

وجم مواطنو القرية.. إن الحجاب قد يكون ذا جدوى وقد لا يكون..

أيضاً قد يكلف الفاعل حياته.. إن الأمر يتطلب الفداء.

قال رجل مخاطباً " الفقى «:

- حسنا فعلت يا سيدى.. هيا ارمِ أنت في قعر البئر. أحرق الغول... توكل.. فأنت الأقدر والأعلم والأجدر !!

فوجئ الفقى بالاقتراح الذى قوبل بالاستحسان من مواطنى القرية، لكنه تحصن بالصمت والاستغراق في التفكير ثم نطق:

- هذا غير ممكن.. إن الأسياد يرفضون.. شخص آخر يجب أن يقوم بالعمل.

استيقظ « صابر « الغائب تماما عن الإنصات. فشمس اليوم القائظ لفحت جسده ويبست شفتيه عطشا وأصابت حلقه بحرقةٍ موجعةٍ. لكن الفضول أدركه عندما رأى مواطنى القرية يتحلقون حول " الفقى " حينها قبض على عصاه ونهض فاندس بين مواطنيه محاولاً أن يستجلى بعينيه ما يحدث إلا أن المحاولة خابت . فالقول بالغول يطرق أذنيه شأن الآخرين لكن الصمم يحول بينه وبين فهم القول.

تأكد " صابر " أنّ ثمة أمراً خطيراً دعا إلى تجمع غير مسبوق، وإلى حضور " الفقى " وإلى ما تضج به القرية من لغط وصراخ ونقاش وهمس يتناهي إليه، من حيث تكومت نساء القرية على الأرض بينما صباياها وقوفاً ينصتن ، إلا أن العطش قاتل وشفتاه تيبستا أكثر، حرقة حلقه تشتد ووهج الشمس يلفح جسده، واليوم القائظ يستوجب المجابهة.

مضى قابضاً على عصاه صوب البئر وعندما فطن مواطنو القرية إلى أن "صابر» قد توجه صوب البئر تعالت صرخاتهم يحذرونه:

- الغول يا " صابر " .... احذر يا " صابر " !!

مواطنون آخرون صمتوا، لم يحذروا « صابر « ربما فكروا باختبار ما يعلن عنه البراح، ربما تمادوا في الإثم فشاؤوا أن يجربوا صدق ما ادعاه « الفقى «، ربما هان عليهم « صابر « فتركوه يهرع إلى حتفه ليدق الغول عنقه، « صابر « لم يعبأ، مضى نحو البئر بخطوات واثقة وعصاه غليظة، اقترب أكثر، اقترح « الفقى « أن يتناول أحد الفتيان الحجاب ويلحق بـ « صابر « فيعطيه إياه ليحرق به الغول، لم يلاق اقتراح « الفقى « تجاوباً، ذلك لأن الأمر يتطلب نصف تضحية على الاقل أي نصف ميتة ربما.

جحظت العيون تراقب في خوف " صابر " وقد قبضت يسراه على عصاه ويمناه على الحبل تحركه بقوة لإنزال الدلو على قاع البئر لكنه ما لبث حتى نزع يده عن الحبل وشد قامته منتصباً يقهقه وقد هوى بعصاه ضارباً في البئر بعنف.

صرخ مواطنو القرية بينما كان " الفقى " مشدوهاً يتابع بعينين بدتا عليمتين ذكيتين:

- مجنون.. أهبل.. « صابر « يقاتل الغول.. الغول سيدق عنقه !!

لم يعبأ « صابر « استرد عصاه، ضربة واحدة شديدة تكفي، وضع عصاه جانباً، اتكأ على البر قليلاً، انتصب واقفاً وقد أمسك بشيء، رماه متأففاً بحذاء البئر، أمسك بكلتا يديه الحبل، ملأ الدلو بالماء، أغدق منه

على شفتيه ورأسه وجسده توضأ، تطهر، التفت فبصقَ على الشيء الملقى إلى جوار البئر، التقط عصاه وتحرك نحو مواطنيه، تدفق مواطنو القرية صوب البئر بقوة الفضول الدافق متقدمين " الفقى " المذهول ، ليفاجأوا بجرذٍ كبيرٍ في حجم أرنب بري مقتولا مكسواً بدمٍ أسود مرمياً بحذاء البئر، صرخوا جماعة:

- كذب البرّاح.. لم يكن غولاً.. لم يكن غولاً على الإطلاق.. كان مجرد جرذ !!

عرس ليلى

كانَ قصير القامة، متينَ البدن، جاد التقاطيع، ذا عينين ذكيتين، يحدث أحياناً أن تخال ملامح وجهه تشرق بابتسامةٍ، يتحدث قليلاً، ينصت كثيراً، يقاطعك إن أنت استرسلت في حديث غير ذي معنى:

- المفيد ؟!

كان حيويا مثابراً دقيقا حريصا على لقيام بتمريناته الرياضية في مواعيد ثابتة محددة ، الأمر الذي قد لا يتوافق وسنوات عمرهِ الستين. عندما تهاتفه فتخبره إنك ترغب في زيارته يجيئك رده قوياً حاسماً:

- متى تجيء ؟.. متى تغادر ؟!

أخبرته ذات مرة أن تحديد مدة الزيارة لا يروق زائريه ثم إنه لا يبدو لائقا، اعترض بشدة، فالوقت عُمرٌ، والعمرُ يجب أن يستثمر حتى آخر لحظة فيما يفيد.

كان يعمل محاسباً، وعندما تقودك صداقتك المقننة به إلى الانزواء في ركن مكتبه انتظارا، تكاد تخاله إحدى آلات المكتب، حاسبة، كاتبة، رقماً صعباً غير ذى جذر.

عيناه الذكيتان تبدوان في الغالب زجاجيتين، لا يمكن أن تخترقا إلى جوانيته، تقاومان بشراسة إن أنت حاولت النفاذ إلى الإنسان فيه، ثم يصرفانك بدقة شديدة ولباقة محسوبة صوب أمر آخر.

ذات يوم فاجأني:

- ليلى !!

نفث دخان لفافته وعيناه شاخصتان إلى سقف المكتب، إن بدتا مصوبتين نحوى، ملامح وجهه جامدة باستثناء صدغيه اللذين انتظما في حركة تنبيء عن توتره.

تساءلت:

- ليلى ؟!

- تأوه:

- ليلى !!

وبدت ليلى كما تبدو دوماً في خيالي، ليست كما البنات، فليلى فتاة غير الفتيات، ليلى وجود عبق بكل ألوان العطر، ملائكي، شفاف، هيَ، ذات العشرين بملامح طفلة، تنصت إليك تبدو كما لو كانت تصلى، تتحدث فتهمس حتى إنك تقترب من الثغر الكرزي لتلتقط الكلمات، فيغشاك خدر لذيذ، تلجأ للعينين الحالمتين، تستقر في الأعماق ، تنتفض فيك رعشة الفرح فتسكن كل الامواج، يخفت الهدير، يركع البحر صاغراً، تصفو السماء، تتلألأ كل النجوم، تضاء كل الآفاق، يبدو الكون رحباً، يمتزج الفرح بالمرح، خلو كل الايام.

تساءلت مرة أخرى:

- ليلى !! ماذا حدث ؟!

أجاب:

- عادني عرس ليلى..

ولم يكمل.

عندما ترحل بعينيك الشرهتين عبر تضاريس القوام الطري الدقيق يختال في الثوب الأبيض محمولاً على قدمين صغيرتين لا يكادان يلامسان الأرض، يغشاك خفر العذارى ليلة عرس ويعاودك حلمٌ لذيذ فتغمض عينيك مستسلماً للفرح حتى تفيق على زغاريد الأبكار في توق بهيج إلى الحب والنماء.

ليلي كانت تحبه كثيراً، هو كان يحبها أكثر، لم يحدث أن أخبرني، لكنه كان يفعل، فالبيت عنده ليلى، البنات الأخريات أصغر من أن يدركن، والأمّ غائبة مغيبة، والبيت الكبير لولا ليلى بارد صامت مغمور بالوحشة والكآبة تطبق على أركانه ظلال رهبة مقيتة.

عندما كان يدعوني إلى البيت أدرك أن وجهها الطفولي الوديع يضيء كل أركانه المعتمة، القوام الرشيق يتهادى في عفوية البكر وحيوية العشرين، وأن شذاها سيعبق عطراً فواحاً فيغمر كل الأنحاء وأن ليلى ستقوم على خدمتنا في حبّ ينهار إزاء ليونته أشد الرجال تمنعاً ووقاراً.

كان يقول:

- هيا بنا إلى ليلى !

نادرا ما يقول:

- هيا بنا إلى البيت.

وهذه تعنى أنّ ليلى غائبة.

زرعت عينى في عينيه، عيناه كانتا عينين بشريتين تفيضان دموعاً وضعفاً وحزناً، يطبق جفنيه فتنساب الدموع على خديه براحة يمناه يزيحها، أنفذ عبر عينيه المستسلمتين إلى الإنسان فيه، تبدو جوانيته جليةً غير مغلفة بالفطنة والدقة والذكاء الحذر.

بدا متحفزاً للحديث:

- تلك الليلة لايمكن أن تمحى من ذاكرتي بكل تفاصيلها الصغيرة ، كانت كما لو كانت ليلة القدر، كنت فرحاً لكنه الفرح المشوب بالحزن، عرس ليلى كان حلماً رائعاً وكان أيضاً حدثاً جللاً، فليلى هى البكر، هى أول من ناداني "بابا" كانت تنام فى حضنى، تتغذى من يدي وأرقب نموها يوماً بيوم، تابعت تفوق ليلى فى كل مراحل التعليم، هي صديقتى فلا تخفي عنى شيئاً، كانت هي وأنا نناقش كلّ الأمور، نتسامر، أداعبها، تمازحنى، لكل هذا كان عرس ليلى حدثاً جللاً لكنه أيضاً كان حلم حياتي.

ليلة زفاف ليلى حاصرتنى أبواق السيارات المزدانة بالشرائط و"البالونات " الملونة، جاءوا يزفون ليلى، يأخذون ليلى إلى قاعة فندق،

إلى حفل صاخب ثم إلى بيت آخر، إلى رجل آخر، إلى حياة أخرى. زفت ليلى، تقاصت الزغاريد والمزامير والضجيج، قبعتُ وحيداً و أطبق الصمت على كل أركان البيت، تفحصت عيناى كل الأمكنة، كل ركن يروي حكاية رائعة، كل زاوية تتحدث عن ذكرى جميلة !!

صمت..!

كان الرجل ينزف ألماً، كان يتضور حزناً، أشفقت عليه، شئت أن أنتزعه من الحالة، قلت:

- وأم ليلى.

جحظت عيناه، زفر زفرةً تقذف لهباً، جاءت عفويتى طعنة حادة فى جرح غائر، تململت كمن يعتذر دون أن أنطق بكلمة.

استطرد:

- تلك الليلة كانت ليلة قاسية، ليس لى إلاّك عوناً، رفعت عيني اليه فى عليائه ألوذ به، كانت السماء ملبدةً، ظلام الليل دامس، النجوم لا تتلألأ فيما كان القمر يبكى، لكننى ما لبثت حتى أغفيت مستسلماً للنوم شأن طفل ولم أعد أذكر كم استغرقت إغفاءتي إلا أنه عندما أيقظني الضجيج كانت الساعة قد بلغت الثالثة صباحاً، وكان القادم ليلى متوجة بثوب الزفاف الأبيض مرفوقة بالرجل الآخر محاطة بفتيات فى عمر الزهور وصبايا فرحات ودفوف وأغان وزغاريد وعطور وحبور وفرح.

انتزعت ليلى ذراعها من ذراع الرجل الآخر، وأقدمت طفلتى الرائعة

تلقي برأسها الصغير على صدري، تحيط براحتيها الفواحتين وجهي، تقبلني وتبكي:

- لن يكون فرحي ما لم يكن فرحك.

تماسكت، مددت يدي فجذبت الرجل الآخر إلى صدري، احتضنتهما، اخترق صوتي جمهورياً قوياً حاداً ضجيج الفتيات وزغاريد الصبايا ودقات الدفوف، فجاب كل أركان البيت مدوياً:

- هو فرحي.. هو فرحك.. هو فرحه..!

رفعت عينيّ إلى السماء فبدت صافية متألقة ، والنجوم تتلألأ والقمر يكفكف دموعَ الفرح غامراً كل الأمكنة بأضوائه الفضية الوضاءة، والله في عليائه يبارك دون شك عرس ليلى.

السيرة ذاتية

محمدعلى الشويهدي

- وُلدَ في مدينة بنغازي في ٢٣-٤-١٩٤٢ م
- حائزعلى إجازة – ليسانس – في الآداب من جامع ةبنغازي.
- صحفي وكاتب قصةقصيرة.صدرت له مجموعات قصصيةفي عدة طبعات:

- أحزان اليوم الواحد:أربع طبعات
- أقوال شاهدعيان: طبعتان
- صرخات في زمن الصمت: نصوص أدبية
- كحل العين:طبعة واحدة
- السوق القبلي:قيد النشر

- حائز على جائزة الدولة التقديرية فى الآداب – القصة القصيرة.
- بدأ العمل الصحافي محرراً متفرغا في صحيفة الحقيقة الليبية الواسعة الانتشار فى أواخر عام ١٩٦٨ م.
- ترأس تحرير عدة صحف يومية – الجهاد + الشورى – وشهرية ثقافية – الثقافة العربية – وأسبوعية جامعة – الموقف العربي – نيقوسيا.
- عضو مؤسس رابطة الصحافيين الليبيين.
- عضو مؤسس رابطة الكتاب والأدباء الليبيين.

المحتوى

أحزانٌ اليوم الواحد..... 5

مريومة تغمز الحصان 17

اعترافات جريئة..... 23

شحنات الكراهيّة 31

أقوالٌ شاهد عيان..... 41

دموع طفل لا يعرفُ الموت..... 49

زغاريد الملائكة 55

بندول الزمن..... 63

الموجة والرحيل..... 69

كحل العين 77

الفراشة 87

زيارة ولد الشيخ..... 95

الزيتونة 101

الجرذ..... 111

عرس ليلى..... 119

السيرة ذاتية..... 125

شركة الأمل للطباعة والنشر
(موراڤيتلى سابقا)
ت: 23904096 - 23952496